منيـر شمـاعـة

جسّ نبـض



منير شماعة

جسّ نبض



Taking Pulse

Mounir Shammaa

First Published in August 2008
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 362 - 3

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: آب (أغسطس) ٢٠٠٨

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: نايلا يحيى
(محترف بيروت غرافيكس)

المحتويات

مقدمة

ستة وخمسون عاماً وبعد العديد من المحاولات الفاشلة، توقفت عن مزاولة مهنة الطب. ففي سنة ٢٠٠٧ من ميلاد القائل «من لطمك على خدك الأيمن فأدرْ له الأيسر» انضم منير حنا شماعة إلى صفوف المتقاعدين. في البدء كان القرار صعباً ومؤلماً، فمهنة الطب تتميّز عن غيرها من المهن مثل التجارة والزراعة والهندسة، بعلاقات إنسانية عميقة ما بين المريض والطبيب، والتوقف عن مزاولتها يفتح الباب على مصراعيه للقلق والتهميش والفراغ. فبين ليلة وضحاها ذهبت هذه الحقبة مع الريح وانقطعت هذه التواصلات الحميمة. فأين الذين كانوا يقولون لي يومياً «اللّه يخليك فوق راسنا يا حكيم»، وأين الأستاذ في المدرسة الرسمية في الجنوب الذي اتصل الساعة العاشرة مساء ليسألني أيهما أكثر نفعاً للجهاز الهضمي: الزيتون الأخضر أم الأسود، والسيدة التي عاتبتني لما سمحت لها بأكل البيض وقالت:

«الظاهر يا حكيم ما بتعرف أنه البيض بيضرّ الكبد». وأين ذلك المحامي الشهير الذي زارني بعد شهر من معالجته ليطمئنني بقوله: «بهنيك يا حكيم! حكمتك مثل ساعة الرولكس»، فابتسمت مزهواً، فأكمل وقال: «لا بتقدم ولا بتأخر».

ولن أنسى الأوهام التي أصبحت حقائق من الصعب اقتلاعها من عقول الناس كفوشة الكبد والأطعمة التي تشمع الكبد وتلك التي تغسلها كالأرضي شوكي وتنشطها كالعسل، فملعقة صغيرة من العسل صباحاً تضمن لك كبداً سليمة، مدى الحياة. وأفتقد أيضاً اختباراتي مع كبار القوم الذين تابعوا علاجاتي من ملوك وأمراء وغيرهم، وذلك الرئيس الكبير الذي أصيب بالكآبة بعد تنحّيه، فقلت له ناصحاً «عندك يا فخامة الرئيس مجموعة كبيرة من كتب التاريخ وقراءتها تزيل عنك الكآبة». وكان جوابه: «يا ابني أنا بصنع تاريخ ما بقرا تاريخ». وحادثة طريفة أخرى مع رئيس وزراء اليونان أندرو باباندريو رحمه الله الذي ذهبت لعلاجه في أثينا وكان مريضاً ومقعداً بالفراش، ولما انتهيت من معاينته قلت له مودعاً «يا سيدي الرئيس هناك ما يجمعني بك فأنا أرثوذكسي مثلك». وكأنّ قولي جرعة من العلاج الفعال، نهض هذا الرجل المريض من الفراش كالشباب وقبّلني ثم اصطحبني إلى حديقة البيت حيث أراني تمثالين: أحدهما للقديس اندراوس على اسمه والآخر للقديسة ديمترا على اسم زوجته الثانية.

إضافة لهذه العلاقات الإنسانية أفتقد الهدايا القيّمة التي كثيراً ما حملها المرضى إلى عيادتي، كالبرغل الخشن من البقاع والكشك من زحلة وماء الورد والزهر والمربيات على

أنواعها. وأفتقد «أبونا» الياس من نيحا البقاع، الذي يحمل أرغفة القربان وصديقه، إبراهيم الذي دأب على تزويدي بشراب التوت. أما العرق فحدّث ولا حرج ابتداءً من عرق جديتا وزحلة إلى زغرتا بكميات كبيرة من أفخر «العرق المثلث». وأما أهل الجنوب فاختصاصهم الحمضيات على أنواعها والأكيدنيا الفاخرة من صيدا والزعتر والعسل البلدي.

وأذكر لذة العلم والتعليم والأبحاث والمداخلات بيني وبين تلامذة الطب والأطباء المقيمين الذين كانوا الحافز الأكبر على تطوري العلمي. وأذكر أيضاً المؤتمرات في كل أنحاء العالم وإلقائي كلمة الطبيب اللبناني. ولن أنسى الليالي التي قضيتها قلقاً على مصير المريض والنشوة لاكتشاف تشخيص عجز عنه غيري. كذلك أذكر أخطائي أيضاً في التشخيص والفشل في المعالجة. كل هذا انتهى وزالت طريقة حياة خصبة ودسمة مارستها أكثر من نصف قرن.

وبالرغم من صعوبة هذا القرار، كنت مدركاً أن هذا اليوم آت فجيّشت قواي العقلية والنفسية للتأقلم مع هذه المرحلة، واقتنعت تدريجياً بالمبررات المنطقية التي اصطحبت هذا القرار. فمنذ سنتين أو أكثر قلّ اهتمامي بمتابعة التطور في مجال اختصاصي وزالت رغبتي في السفر لحضور المؤتمرات الطبية التي كنت أشارك فيها مرة أو مرتين في السنة. وبعد نصف قرن من العمل في قسم الجهاز الهضمي في المركز الطبي في الجامعة الأميركية في بيروت، وجدت أن مجموعة الشباب الذين انضموا إلى هذا الاختصاص يفوقوني علماً ونشاطاً فتأكدت أن الوقت حان لتسليم الأمانة إلى عنصر الشباب. أقولها بفخر واعتزاز (لأنهم كانوا من تلاميذي)

والتطور يفرض بأن يفوق التلميذ المعلم. وأما القشة التي قصمت ظهر الجمل كما يقول المثل الإنكليزي، والتي أكدت لي صواب قراري بالاعتزال فهي الملاحظات العفوية والبريئة والغير مباشرة لبعض المرضى بقولهم «ما شاء الله بعدك بتحكم يا حكيم» أو «جدي قال لي أنك عالجته من خمسين عاماً». وتُوّجت هذه الملاحظات بحادثة زادتني اقتناعاً. فمنذ مدة كنت في طائرة تابعة لطيران الشرق الأوسط راجعاً إلى بيروت من فرنسا، وقبل الإقلاع مرّ عليّ المضيف وركّز لثوان عديدة على وجهي كأنه يتذكر شيئاً وقال: «مش حضرتك الدكتور شماعة يلي كان طبيب بالجامعة الأميركية؟» فقلت له غاضباً: (كان وما زال) ويظهر أن غضبي هذا لم يردعه عن إطلاق السؤال الثاني «مش كان عندك عيادة مقابل المستشفى؟»، فقلت له متمالكاً نفسي من الغضب على وقاحته (كان وما زال). فقال: «ما شاء الله عليك بعدك منيح». وكأنها عجيبة العجائب! وانتهى اللقاء وأكمل المضيف طريقه. أما أنا فبقيت طوال الرحلة التي استغرقت ثلاث ساعات ونصف الساعة أراجع وأحلل وأدرس هذه الحادثة محاولاً فهم تأثير كلمة (كان) عليَّ ولم أحسب يوماً من الأيام أنّ (كان) ستصبح من أهم مصادر الإزعاج النفسي لديَّ.

فبالنسبة لي (كان وأخواتها) أي أمسى وبات وما زال وما فتىء وما برح وربما غيرها من الأخوات هي أفعال ماضية ناقصة تدخل على المبتدأ والخبر فترفع الأول اسماً لها وتنصب الثاني خبراً وانتهى الأمر.

فلا (كان) ولا أخواتها كان لها صفات تذكر. وكنت أفتخر وأتباهى دائماً أمام أصدقائي الأقل إلماماً مني باللغة

العربية وإعرابها أني أميّز بين (كان) وأخواتها (وأن) وأخواتها، ولم أذكر يوماً أن (كان) سببت لي إزعاجاً مثل ما سببته عندما واجهني مضيف الطائرة. وبعد ساعات من التأمل والتفكير على علو ثلاثين ألف قدم توصلت أخيراً إلى حل هذه المعضلة: وفهمت معنى (كان) الذي يختلف باختلاف الزمن، والزمن هنا يرمز إلى الأعمار. فـ (كان وأخواتها) عند الصغار ترمز إلى ماضٍ بعيد لم يعيشوه بل سمعوا عنه من آبائهم وأجدادهم.

أما عند الشباب فـ (كان) لها مدلول زمني آخر لكنه أقل قدماً، فيتذكر أحدهم مثلاً أن الذي توفي اليوم كان صديقاً لوالده. حين تصل (كان) إلى أشخاص بعمر الكاتب تصبح رمزاً للحاضر وربما المستقبل ويصدق المثل الإنكليزي الذي يقول عن هذا العمر الجليل «مستقبل البارحة هو ماضي اليوم». أي أن المستقبل في هذا العمر هو ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره (الماضي). فلا عجب إذاً أن أسمع المضيف يعبّر عن دهشته لوجودي وبقائي على هذا الكوكب.

أراحني هذا التحليل وفهمت ما وصفه المضيف كما فهمت للمرة الأولى أني أصبحت في خبر كان.

والآن وبعد مضي سنة على تقاعدي، تعلمت الكثير من هذه المرحلة وفهمت أسباب النظرات المتناقضة إليها. فالتعريف الشائع للمتقاعد هو «مت وأنت قاعد» ولا عجب إذاً من تأثير هذه النظرة السلبية والمتشائمة في جسم المسن ونفسيته. فالخوف من الموت وتدنّي المستوى الذهني والنقص في الذاكرة وخصوصاً للحوادث القريبة، وضعف النظر والسمع، كلها تؤدي إلى مركب نقص عنوانه: اليأس

والكآبة، فينزوي عن الناس والمجتمع ويلازم بيته بلا حركة مما يزيد من ضعفه، وتفقد عظامه صلابتها وتزداد نسبة الكسور وتستمر هذه الحالة إلى ما شاء الله.

والجدير بالذكر في هذا المجال أن كل هذه المضاعفات التي ذكرتها لا تستثني أحداً، فتصيب الرجال والنساء والمتأهلين والعازبين والأغنياء والفقراء والمثقفين والأميين. والقاسم المشترك بين كل هذه الشرائح من المجتمع هو عدم الاستعداد والتحضير مسبقاً لمواجهة هذه المرحلة والتأقلم مع مضمونها. فالكبر لا بد منه وهو عملية تدريجية متواصلة وشاملة تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت، أو تختلف سرعتها بين شخص وآخر لأسباب عديدة أهمها الوراثة الجينية إضافة إلى الحالات المرضية. فمن الناس من يشيخ في عمر الشباب ومنهم من يتمتع بنشاط جسدي وعقلي في شيخوخته. وعدد السنين فقط لا يشير دائماً إلى الشباب أو الشيخوخة.

سأبدأ بتجربتي الشخصية في هذا المجال. وكما ذكرت سابقاً فإن أهم عامل لمواجهة هذه المرحلة هو الإدراك التام بأنها آتية لا محال وأن التحضير لها يساهم إلى حدّ بعيد بتخفيف الصعوبات التي ترافقها. أما الذين (يتعامون) عن هذه الحقيقة ويشطبونها من مخزن ذاكرتهم فتقضي عليهم كالغيمة السوداء وتمطرهم بكل الاضطرابات النفسية والجسدية التي ذكرتها سابقاً. ولست أبالغ إذا قلت إني بدأت التحضير لها منذ ثلاثين عاماً إلى أن توصّلت إلى التعريف الإيجابي أو السبل الكفيلة بمعالجتها. فالتقاعد في نظري هو الانتقال من عمل إلى عمل آخر، أو إقفال باب لتفتح أمامك أبواب. وهذا التعريف هو النقيض المباشر للتعريف السلبي بأن «التقاعد هو الموت وأنت قاعد». ومن

محاسن هذا العمل الجديد التنوع وحرية الانتقاء بين العديد من المواضيع. فبعد أكثر من نصف قرن من العمل في مجال واحد، بالرغم أهميته ومتعته، بدت أمامي مجموعة من الخيارات لأنتقي ما لذَّ وطاب. فمهنة الطب التي مارستها وخصوصاً إذا اقترنت بالتعليم والأبحاث والتطبيب كانت سداً منيعاً في وجه الاهتمامات الأخرى مما أشعرني طوال هذه السنين بنقص عميق في مستواي الثقافي وجهلي الكامل لمواضيع لا تقل أهمية عن الطب.

كل هذا حضّني على وضع خريطة الطريق إذا صحَّ التعبير لحقبة التقاعد وتدوين المواضيع والهوايات التي آمل أن أمارسها. وعبر السنين اتسعت هذه القائمة لدرجة أخشى أن ما تبقى لي من السنين لن يسمح لي بالخوض حتى في بعضها.

وسأبدأ بلذتي الأولى وهي قراءة التاريخ وسيرة الرجال الذين صنعوا التاريخ، زاد من اهتمامي هذا نشوب الحرب العالمية الثانية وأنا في الحادية عشرة من العمر. فمنذ ذلك الوقت كنت أتابع يومياً مجرى المعارك الحربية على كل الجهات، من الهجوم الصاعق للجيش الألماني على فرنسا إلى حصار ستالينغراد ولينينغراد في روسيا والكرّ والفرّ بين جيش المحور بقيادة المارشال رومل الألماني والجيش البريطاني بقيادة الجنرال مونتغومري في أفريقيا الشمالية ومصر. فوجىء والدي باهتمامي هذا ونظم لي جلسات مسائية مع بعض الجيران ليظهر لهم مواهب ابنه الفريدة. والممتع، ملاحظتي آنذاك وقوف جيراني الأرثوذكس مع الروس والجيران السنّة مع الألمان. ثم أخبرت والدي بعدها أني سأختار دراسة التاريخ في المستقبل، وكان جوابه «أعلى ما تصل إليه

بدراسة التاريخ هو أن تصبح معلم مدرسة ومعاشك سيكون أقل من مدخول عمر البويجي بمسح الأحذية، فنصيحتي لك أن تدرس الطب أو الهندسة».

فعملت بنصيحته وأبقيت غرامي بالتاريخ في مخزون الذاكرة، مع حرصي المستمر على تجميع كل المعلومات عن هذا الموضوع. ومن حسن حظي أن بعض أصدقائي هم أساتذة في التاريخ أو ملمون بهذا الموضوع ومنهم الدكتور كمال صليبي والدكتور طريف الخالدي والدكتور هشام شرابي، رحمه الله، والأستاذ وليد الخالدي والسيد هاني الهندي والذين زوّدوني بالمصادر القيّمة. ومن اليوم الأول بدأت بقراءة التاريخ العربي القديم وبرزت لي بوضوح الخلافات العميقة التي بدأت منذ ذلك الزمن وما زلنا نشكو منها إلى اليوم. وذكّرتني بما قاله الكاتب البريطاني الشهير جورج برنارد شو «نتعلّم من التاريخ أننا لا نتعلّم شيئاً من التاريخ».

ثم انتقلت إلى تاريخ العرب في الأندلس وادهشني مستوى الرقي الثقافي والعلمي والاجتماعي العربي بالنسبة إلى الشعب الأوروبي آنذاك. وتوضّح لي أيضاً التسامح الإسلامي النبيل تجاه اليهود والنصارى المقيمين في الأندلس ومشاركتهم في تسيير أمورهم. ولن أطيل الحديث بل أكتفي بالقول إنه ما زال لديَّ لائحة طويلة من العناوين في التاريخ عن حقبات أخرى ابتداء بتاريخ الفراعنة في مصر والتاريخ الإغريقي منبع الفلاسفة وتاريخ الإمبراطورية الرومانية وانشقاقها إلى غربية وشرقية وصولاً إلى العثمانيين وتاريخ العرب بعد الحرب العالمية الثانية.

ولي اهتمام آخر وهو الكتابة باللغة العربية. ويعود سبب هذا الاهتمام إلى نشوب الحرب القذرة في لبنان سنة ١٩٧٥ وتوقفي لمدة طويلة عن ممارسة الطب أثناء الأحداث الأمنية المخيفة. ولملء الفراغ آنذاك، باشرت بكتابة مقالات أسبوعية طبية نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» ثم أصدرتها في كتابي الأول وعنوانه «الطب بين الحقائق والأوهام». وإبان الحرب الأهلية أيضاً ساهمت في تأسيس تيار فكري مع الدكتور نجيب أبو حيدر رحمه الله، وضمّ الدكتور حسن مشرفية والآنسة ليلى القاضي. أصدرنا في حينه نشرة أسبوعية كنت أكتب فيها مقالات تتضمن آرائي في ما يجري. ومنذ سنة تقريباً تصفحت ما كتبت آنذاك (أي من ثلاثين سنة) فوجدته ينطبق تماماً على ما يحدث اليوم. (تيتي تيتي مطرح ما رحتي مطرح ما جيتي). أما أجرأ وأصدق وأصرح ما كتبته إلى الآن فهو «إقلاع وهبوط» الذي يحكي مسيرتي منذ الطفولة.

أخيراً جاء دور الشغف بالأدب والشعر العربيين، والفضل الكبير هو صداقة حميمة ربطتني ولا تزال مع كل من الدكتور طريف بزي والدكتورة سمر مجاعص أستاذة اللغة العربية اللذين أعاناني على فهم لغتي العربية وتهذيبها، فضلاً عن الدكتور أسامة الخالدي الأخصائي بالكيمياء العضوية الذي له معرفة تفوق الوصف بالشعر العربي. ومن مشاريعي «المستقبلية»، إذا كان لهذه السن من مستقبل، آمل أن أكتب عن هذه التجربة الممتعة في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى العصر العباسي، والذي رسم لي صورة ساطعة عن الرقي الثقافي والعمراني في تلك الحقبة والأدب الرفيع عند الشعراء لجهة وصف الكرم والبخل والجرأة و«التفشيط» والغرام والخمر والمدح والهجاء.

إضافة إلى كل هذا، فالتقاعد لا يحرم الإنسان من الاستمرار بحياته الاجتماعية التي كان يتمتع بها من قبل، بل إن هذه المرحلة تتيح له توطيد العلاقة مع الأصدقاء والاهتمام بالأمور العائلية التي أهملها في السابق ويعمل بما ورد في الحديث الشريف «إن لنفسك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً وإن لربك عليك حقاً». هذه هي تجربتي الشخصية، وقد يكون التفاؤل الذي وصفته نتيجة طبيعتي الإيجابية التي قد لا تنطبق على آخرين، كما أن المرور الهادىء والمريح من مرحلة إلى مرحلة يتطلب حالة صحية جيدة وحالة نفسية مستقرة ومستوى مادياً مريحاً. فالهمّ الأول للمريض، سواء كان عاملاً أو متقاعداً هو مرضه وآلامه، وهمّ الفقير لقمة عيشه، وكل ما ذكرته سابقاً من محاسن التقاعد يبقى عند الفقير والمريض في دنيا الأحلام.

وأخيراً كلمة إلى الذين تجاوزوا الخمسين من العمر: أبقوا في ذاكرتكم أن ذلك اليوم آتٍ بإذن الله. استعدّوا له من الآن ودوّنوا «كل ما تطمحون إلى ممارسته في هذه الحقبة» وتذكروا أن التقاعد يغلق باباً ويفتح أبواباً، فلا تخافوا من الفراغ والملل. مارسوا الفضول والحشرية والسعي نحو المعرفة لأنها أفضل علاج للضجر، وفي عصرنا هذا أصبح الفضول والحشرية والسعي نحو المعرفة من أسهل الأمور وبمتناول الجميع. فما عليكم إلّا أن تفتحوا الإنترنت وتهمسوا «غوغل» أو «ياهو» بما تريدون فيأتيكم الجواب مع إجابة مسهبة عن سؤالكم. وبهذا يصبح بدء التقاعد مدخلاً إلى عالم غني بكل ما تحلمون به.

أخيراً، لا بد من الإشارة إلى أن الكثير من فصول هذا الكتاب، كما أشرنا في هذه المقدمة، كتب في مناسبات

معيّنة وبتواريخ محددة من مراحل العمر بدءاً من بدايات الحروب اللبنانية المشؤومة وحتى كتابة هذه السطور.

وقد ارتأينا عدم إثبات التواريخ لعدة أسباب أهمها أن الهدف من وضع هذا الكتاب ليس التأريخ لأحداث معينة بل نشر أفكارها ووقائعها بعدما ثبت لي أنها تنطبق على واقعنا الحالي ولعل في نشرها ما يشير إلى عللنا وما يداوي بعضها.

كذلك لم يكن الهدف جمع ما كتبنا من مقالات في كتاب ودخول نادي المؤلفين والكتّاب أو الحفاظ على ما كتبنا خوفاً عليه من الضياع وكأنه الدرّ المكنون. إنما الهدف البوح بما رأيته مفيداً ومسلياً للقارىء الكريم، وقد جعلته في قسمين. قسم مليء بالطرف وحكايات الأيام الملاح وسميته أيام زمان. وقسم مليء بشؤون السياسة وشجونها وسميته «تيتي تيتي...».

القسم الأول

أيام زمان

١

أيام الطفر

بعد تخرجي من كلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٥١ اقترحت عليّ والدتي السفر إلى بريطانيا للراحة من عناء الدراسة ولأزور أختي ماري المتزوجة من رجل إنكليزي والساكنة في قرية صغيرة قرب مدينة نوتنغهام في وسط بريطانيا. وكان جوابي «من كل بد ولكن ما معي مصاري، ولا أنت يا ست أدما معك مصاري، فكيف تريدين مني أن أسافر؟». ابتسمت الوالدة وكانت لها ابتسامة جميلة بالرغم من المنديل أو «القمطة» التي كانت تشدها على رأسها مثل الهنود الحمر لتخفف من الصداع الشديد الذي ينتابها نتيجة ارتفاع ضغط الدم. نادت أختي الكبيرة إفلين التي لم تترك أمها يوماً طوال مرضها وقالت لها: افتحي خزانتي وأعطني الجزدان الأسود، وأطلعت منه رزماً من الأوراق بلغت مئتين وخمساً وعشرين ليرة وقالت: «خذ هذه وألله بيدبر الباقي». وعلى كل حال يا ابني أنا تكلمت مع صديقنا فؤاد بلطجي الذي يعمل في المرفأ

وقال لي إن سفينة شحن فرنسية ستصل إلى بيروت في منتصف شهر تموز وسيدبّر لك مقعداً على هذه السفينة بخمس وعشرين ليرة، وبالنسبة للأكل على الباخرة سأسلق لك كمية من البيض والبطاطا تكفيك أسبوعاً إلى أن تصل إلى مرسيليا ومنها تأخذ القطار إلى باريس ثم الحدود وتبحر إلى بريطانيا حيث ستلاقيك أختك ماري في لندن، وتقضيان عدة أيام في العاصمة على حسابها ثم تمضي باقي الوقت في بيتها قرب نوتنغهام.

أعجبت بتدابير الوالدة، وكانت هذه من أهم ميزاتها إذ لم تترك شاردة أو واردة من التفاصيل إلا أكملتها. فميزة الوالدة أنها إذا أرادت شيئاً اليوم تأمل تحقيقه البارحة. وقد ورثت هذه الميزة من والدتي، ورثة لها حسناتها وسيئاتها. وحسابات الوالدة هذه لم تكن نتيجة البخل بل العكس، إذ كانت من المحْسنات بطريقتها الخاصة، توزع كل ما كان يفيض من أكل على الفقراء.

وصلت لندن والتقيت بأختي ماري في محطة سان بنكراس ومن ثم ذهبنا إلى الفندق الذي حجزت فيه غرفة مع طعام الفطور (بسعر جنيهين وأربعين بنساً على الشخص الواحد). وتبين لي أن الفطور عند الإنكليز وليمة، فبالإضافة إلى الشاي والقهوة والحليب والعسل والمربى والخبز كنا نأكل البيض مع قطع من جبنة «البيكون» صباحاً مما يشبعنا ويغنينا عن غداء كبير. قضيت ثلاثة أيام في لندن وأعجبت بمعالمها السياحية ومنها برج لندن ومجوهرات الملكة ومتحف الشموع وهايد بارك وساحة البيكاديلي وغيرها. لكن أهم ما تعلمته في تلك الأيام القليلة وما زال محفوراً في ذهني منذ نصف قرن هو الفارق الكبير بين تصرف الإنسان في لندن وتصرفه في لبنان. ففي اليوم الثاني من زيارتي للندن عزمت على الذهاب

إلى محل لبيع الأحذية الإنكليزية من نوع «باراتس». ولهذا الحذاء تاريخ طويل بالنسبة لي ملؤه الحسرة والحسد. ففي أيام الدراسة في كلية الطب وعلى مدى خمس سنوات كان لي صديق عزيز يدعى كمال كونيني ـ علمت أنه توفي منذ شهرين. وكمال شاب يهودي عراقي من البصرة جاء إلى لبنان لدراسة الطب. ومن أهم علامات هذا الشاب العراقي الوسيم إضافة إلى ذكائه وأخلاقه الحميدة هي الأحذية الأنيقة التي كان يلبسها وهي من ماركة «باراتس» الإنكليزية. كنت أمتع نظري بحذائه كأنه جسم مصقول على يد نحات ماهر، وأقول بحسرة: متى سيأتي ذلك اليوم الذي ألبس فيه حذاء باراتس. وتحقق الحلم عندما دخلت أحد محال «باراتس» في شارع بيكاديلي وأشرت للبائع بثقة المنتصر وعزمه إلى الحذاء المعروض في الواجهة. جلست على كرسي خاص بالمقاسات وأخذ يكيل قدمي طولاً وعرضاً ثم ألبسني فردتي الحذاء وتمشيت عدة خطوات في المحل، وكان الحذاء مريحاً وصممت على شرائه مهما كان ثمنه، وتذكرت كلمة الوالد الذي كان يقول لي دائماً «الغالي يرخصلك». نظر إليّ البائع بهدوء وكأنه يفكر بحل معضلة صعبة. مرت دقيقة صمت طويلة وبعدها قال إنه من الأفضل ألا أشتري هذا الحذاء لأنه لن يكون مريحاً بعد أيام وسيؤلمني في المشي، ومضى يفسر أن تركيبة عظام رجلي وعلوها المفاجىء ستسبب لي آلاماً إذا مشيت فيه لمدة طويلة.

حاولت إقناعه عبثاً بأني مرتاح جداً، فكان جوابه أنه سيحاول البحث عن مقاس أصلح لقدمي. وبعد دقائق قليلة جاء قائلاً: «متأسف يا سيدي لم أجد القياس المناسب لك»، وأصر على ألاّ يبيعني الحذاء. انتهت القصة ولم ينته وقعها إلى اليوم. خرجت من الدكان حزيناً ومذهولاً. لم أصدق ما قاله هذا البائع المعتوه. أمعقول

أن بائعاً لا يريد البيع؟ أمعقول أن موظفاً عادياً يعتمد مدخوله على كمية البيع يحرم نفسه من زيادة المدخول؟ أفكار وسيناريوهات عديدة مرت في ذهني لتفسير ما حصل أو تبريره. هل الموظف على خلاف مع أصحاب المتجر ويعمل لخفض المبيع، أم أنه وعد شخصاً آخر بهذا الحذاء وبسعر أغلى؟ ولم يجل في أفكاري بتاتاً أن هذا الأسلوب في التعامل التجاري هو الأسلوب الطبيعي والمتّبع في المحلات الراقية في لندن. وفجأة برزت على شاشة مخيلتي صورة لـ«هاكوب» بائع الأحذية في محلات «درسيم» الشهيرة آنذاك في شارع المعرض في بيروت. هاكوب رجل صغير الحجم في العقد السادس من العمر يتميز بلبس البابيون (الفراشة) بدلاً من الربطة الطويلة. أذكر كسم رأسه بوضوح عندما ينحني ويلبسني الحذاء. أصلع ما عدا خصلة صغيرة من الشعر يمشطها بأناقة ويصفّها شعرة شعرة من الخلف إلى الأمام لتغطية الرأس. يجرب هاكوب الحذاء على قدمي فإن قلت له إنه واسع يردّ «ما يهمك يا خواجه منير «إمش فيه كم يوم وبيزبط على رجلك» وإن كان ضيقاً فجوابه أيضاً «إمش فيه وبيوسع شوي شوي».

حادثة بيع أو شراء الحذاء أكان من محلات باراتس في لندن أو درسيم في شارع المعرض لا تستحق كل هذا الشرح الطويل لكنها نبّهتني إلى حقيقة كنت أجهلها وهي أننا في لبنان لا نفرق بين ما هو مربح على المدى القصير وبين ما هو مربح على المدى البعيد. فنظرة الإنسان الحياتية عندنا ترتكز كما يظهر على الرغبة في الربح السريع، وكل مشروع يتطلع إلى المدى البعيد يُنعت باللاواقعية والسلبية. فاللبناني يأمل بجمع ثروته في سنة واحدة وكل تفكيره وعبقريته وممارساته تنصبّ على هذا الهدف، وغالباً ما يعمد إلى تجاوزات وحربقات للوصول إليه. فبائع الأحذية في لندن الذي

ظننته معتوهاً وهاكوب في سوق المعرض لقّناني درساً وتفسيراً مقنعاً لما نحن عليه وإلى أين نحن سائرون.

وحتى لا يظن البعض أني انتقيت هاكوب لأخص الأرمن بالتهمة أسارع إلى القول من الآن إن الأرمن في لبنان هم من أهم وأفيد العناصر في مجتمعنا، وأنه لولا الأرمن ومهارتهم التقنية والفنية لما كانت البنية التحتية في لبنان على ما هي عليه. اختباري مع الأرمن إيجابي جداً، وهم شعب جدير بالعيش الكريم فلا شحاد ولا متطفل ولا عاطل من العمل بينهم. أقول هذا دفاعاً عن هاكوب بائع الأحذية، فما ذنبي إن اقتبس هاكوب عاداتنا ونظرتنا إلى الربح والخسارة.

تمشيت بعدها في ساحة بيكاديلي في لندن الغاصة بالناس وعجقة السيارات والمطاعم والمقاهي والمسارح إلى أن وصلت إلى ساحة لستر. دخلت محلاً يبيع السمك والبطاطا الذي طالما قرأت وسمعت عنه، وهو يتبع أقدم التقاليد في المأكولات الإنكليزية، وتأكدت لي عراقة المكان لأن السمك والبطاطا تقدم للزبون ملفوفة بورق الصحف الإنكليزية.

اتجهت بعدها إلى محطة المترو للذهاب إلى الفندق. نزلت سلم المحطة واسترعت انتباهي علبة لمسح الأحذية شبيهة بأناقتها بالعلب في بيروت. كريات صفراء من النحاس اللماع على جانبي العلبة المزينة بالألوان، توقفت عندها باحثاً عن ماسح الأحذية إذ ازددتُ شوقاً لمسح حذائي في لندن. والتفتّ إلى الحائط قرب علبة البويا ووجدت ورقة كبيرة ملصقة بالحائط كتب عليها «سأتغيب ساعتين لشرب الشاي وأكون هنا الساعة الخامسة ـ إمضاء توم البويجي». لم أصدق ما قرأته، فقرأته ثانية وثالثة وظننت أنها مزحة كتبها أحد

المارين. سألت بائع الصحف المجاور فقال لي بنبرة عادية إن توم يترك كل يوم علبته لتناول الشاي في مقهى مجاور ثم يرجع إلى عمله. بويجي يشرب الشاي في المقهى ويعلن معتذراً من زبائنه عن عدم وجوده في مكان عمله!! لم أكن طفلاً ذلك الحين ولن تفوتني هذه المزحة وأنا في الثالثة والعشرين من العمر وقد مسحت أحذيتي طوال سنين عديدة عند أشهر ماسحي الأحذية في رأس بيروت من (عمر) البويجي الذي عاش فترة طويلة في البرازيل وأتقن اللغة البرتغالية ثم أفلس مالياً واستقر في شارع بلس ماسحاً للأحذية، وعادل الملقب بغاندي لشبهه بالزعيم الهندي وهو صاحب النظارة بزجاجة واحدة لأن العين اليسرى فاقدة البصر كلياً، وحسين شيخ الماسحين ومعلمهم جميعاً وصاحب البدع في فن مسح الأحذية، إضافة إلى خورين الأرمني الذي اختص بأحذية الأطباء المتمرنين لقاء تموينه بجرعات الأنسولين لمعالجة مرض السكري. لم أدخل يوماً في تفاصيل حياة البويجي اللبناني وهل كان يشرب الشاي أم لا. لكنني لا أعتقد أن أياً منهم كان يشرب الشاي في مقهى. أمن المعقول أن أجد عمر البويجي يدخل مطعم فيصل المجاور له ويطلب من أنور الكرسون «جبلي فنجان شاي». أمعقول من عادل البويجي أن يكتب على الحائط معلناً تغيبه عن العمل وكأنه مدير شركة كبيرة أو طبيب ممارس. أفكار جالت في ذهني لأول مرة وذلك لأني لا شعورياً ترعرعت في بيئة كأن البويجي فيها ليس من الناس ولا علاقة له بعادات الناس كشرب الشاي في البيت أو المقهى.

لم يحظر في ذهني يوماً أن للبويجي حقوقاً تخوله كتابة كلمة عن مواعيد عمله وساعات فراغه. درس جديد تلقنته بعد هذا الحادث البسيط مما فتح آفاقاً وتساؤلات لم أعهدها من قبل وهي قيمة الإنسان هنا وهناك. فالإدراك الذي كان سائداً عندي آنذاك وما

زال عند الكثير من اللبنانيين حتى اليوم، هو أن الإنسان في لبنان لا يكتسب وجوده معنى أو قيمة إلا إذا أضيفت له صفة تسنده فتكتمل إنسانيته إما بوظيفة كبرى أو مال يسير أو انتماء إلى زعيم أو حزب أو طائفة. كذلك فإن نوع السيارة ولوحتها التي لا تتعدى الثلاثة أرقام تزيدان من مقام الإنسان وأهميته. ولن أنسى ربطة العنق «الكرافات»، فاللبناني الأصيل لا يهتم بجمال ربطة العنق وأناقتها بقدر ما يهمه أي مصمم فرنسي أو إيطالي ابتكرها. وإذا لم تكتمل كل هذه المواصفات تسقط حقوقه الإنسانية ولا يحق له ما يحق للبويجي الإنكليزي حيث الإنسان هو جوهر الوجود ولا يحتاج إلى صفة ثانية لتكتمل إنسانيته.

ومرت الأيام وتعددت الأحداث التي أكدت لي حقيقة مأساة الإنسان في لبنان. فبعد مرور أربع سنوات على هذه الحادثة كنت أحاضر في الجمعية الطبية في بوسطن إبان تخصصي في جامعة هارفرد وكان بين الحضور إضافة إلى أساتذتي، رجل طويل القامة علمت بعدها أنه الدكتور ويليام كاسل الحائز على جائزة نوبل لاكتشافه الفيتامين B12. ويبدو أن محاضرتي أعجبته وجاء يهنئني ثم سألني «أيها الشاب من أين أنت؟» فقلت له إنني من بلد يدعى لبنان، وفسرت له أين يقع لبنان. فقال لي الدكتور كاسل مبتسماً «لبنان يا ابني ليس بلداً بل مؤسسة تجارية». لم أفهم آنذاك ما عناه الدكتور كاسل، ثم بدأت الصورة تنجلي إلى أن توصلت إلى قناعته بعد نصف قرن.

٢

تُذكر ولا تُعاد

قد يكون هذا الفصل من الكتاب نتيجة الشيخوخة أو الختيرة إذا صح التعبير. فكل الذكريات الآتية كانت وما زالت تجول في خاطري بلهفة وحزن معاً لزوالها. ولا بد من قبول فكرة التطور والتغيير في كل المجالات مع الأسف لغياب بعض ما كنا عليه.

فأين بائع الخضر الجوال على عربته يرنّم بأعلى الصوت «عازتك عازه يا حامض» وفي موسم الموز «عسل يا ماز» وأين «العشرة بليرة يا خس» في بلدة الجية على الساحل الجنوبي فخوراً بحجم الخسة الكبيرة «خسّة وزّة». وقبل هجوم الكولا والبيبسي والسفن أب على لبنان كان كازوز جلول ملك السوق، فبعد الخروج من السينما على ساحة البرج نصطف لشرب كازوز جلول وحين يفتح البائع الزجاجة بمفتاحه الخاص يصرخ «وان كانت باردة يا حبيبنا سندها» وسألته مرة لماذا اللهجة الشامية في هذا النداء؟ فأجاب: «تعلمتها من

بائع كازوز مثلي في دمشق». وفي فصل الصيف أيضاً يمر يومياً كميون محمل بألواح الثلج تقطع بضربة محكمة بساطور إلى أنصاف وأرباع حسب حاجة الزبائن.

وحتى المطاعم تغيرت، فأقفل مطعم فيصل الذي فاتني التحدث عنه في كتابي السابق والذي سميته «أبو المطاعم». ومن أهم مميزات هذا المطعم إضافة إلى موقعه قبالة مدخل الجامعة الأميركية طقم الجرسونية الفريد الذي كان يعمل فيه، ابتداء من أقدمهم المعلم ميشيل بلباسه الرسمي ولباقته ورشاقته في حمل الصحون، وأنور الذي سنذكره في سياق آخر عندما نبحث في المداولات السياسية وتحليلاته في الأوضاع العالمية، وأمين الذي يمتاز من غيره بمعرفة بما يشتهي الزبون من طعام. وسأكتفي بسرد حادثة طريفة حدثت حين دعوت نائب رئيس فنادق هوليداي إن ـ وهو أميركي لبناني الأصلِ إلى تناول الطعام في هذا المطعم العريق. طلبت من أمين أرضي شوكي مع الأرز لشخصين مع صحن حمص. اقترب أمين مني وقال بصوت خافت: «اليوم يا حكيم مش أيام الأرضي شوكي الطازج، وكلّ ما تأكله في السوق من المعلبات، أقترح عليكما نص صحن فاصوليا مع الأرز لأن الكمية كبيرة». فدهش ضيفي من هذا التعليق وقال «أنا دكتور في العلوم الفندقية وخريج جامعة كورنيل التي تعد أشهر جامعة في هذا الاختصاص في الولايات المتحدة الأميركية ولم أسمع يوماً في دراستي الطويلة اقتراحاً كهذا. سأتصل بجامعتي لأبلغهم ما تعلمته في مطعم فيصل».

ولا بد من نبذة تاريخية عن مطعم فيصل: فبعد أبو فؤاد فيصل، صاحب المطعم الذي كان الأب الحنون لجميع التلامذة، ونجيب البارودي جاء جوزيف النمس ليدخل كأس العرق في فولكلور المطعم

وذلك بدءاً من الطاولة الرقم ١٣ التي كنت أطلقُ عليها اسم «طاولة البلاش» لأن فريد فيصل لم يأخذ مني قرشاً على تلك الطاولة. وفي الحلقات المسائية كانت الطاولة ١٣ تضم صاحب المطعم فريد فيصل وفيليب رزق صاحب عرق «رزوق» المشهور آنذاك وفريد مجدلاني النجار الفرنجي المعروف وعماد برازي والمحامي عشير محفوظ وغيرهم. وقد انتشر وباء هذه الطاولة حيث عم كل طاولات المطعم بعد مجيء أم سمعان الزغرتاوية ومعالجتها الكبة والهبرة النية مدعومة بالحمص والفول وشاورمة أبو عمر. وبعد جوزيف النمس الذي قتل بحادث سير مريع جاء إميل شعيب الذي خلف جوزيف النمس في إدارة المطعم. بدأ إميل عمله في الكنيسة أملاً في أن يصبح يوماً «خوري»، ولأسباب أجهلها انقلب من مهنة الكهنة إلى مدير مطعم ويمتاز باهتمامه الشديد وصداقاته العديدة مع الزبائن. ولن أنسى أبداً اتصاله بي بالعيادة ليقول لي: «مر اليوم يا حكيم على المطعم فلكَ طبق من الكبة الأردنية الباردة والبامية لأنك بتحبها بايتة وباردة».

ومن منا ينسى مطعم العجمي الشهير آخر سوق الطويلة وبالقرب من مركز جريدة النهار آنذاك. المعلم مصطفى رئيس الجرسونية بلباسه الرسمي مع البابيون السوداء أشهر من نار على علم، وقد لحن له الموسيقار عزام أغنية خاصة به «يا مصطفى يا مصطفى ـ أنا بحبك يا مصطفى». صداقتي بمصطفى قديمة وترجع إلى أيام الطفر لما كنت طبيباً مقيماً في مستشفى الجامعة الأميركية ومعاشي آنذاك ستون ليرة شهرياً أصرف نصفها على شراء دخان البافرا. وجبتي المفضلة عند العجمي كانت الحمص بطحينة وبعدها أتحلى بالفريز مع كريم، ألتهمها وأنا أعالج سيلاً من الأسئلة من المعلم مصطفى عن أعراضه العديدة من النفخة والغازات وألم البطن إضافة إلى أسئلة جديد أمراض الكبد والإمعاء الغليظة. وكم لفت نظري أن

الفاتورة على الوجبة ذاتها كانت تختلف من يوم إلى آخر، وحين كنت أجدها منخفضة عن الأسبوع الفائت أسأل «يا مصطفى لماذا اليوم أرخص من قبل؟» فيكون جوابه «أنت يا حكيم طفران فحولت الفريز مع كريم على فاتورة الخواجا ألبرتو سليم... فالخواجا ألبرتو مش متلك.. بيحمل». وألبرتو سليم كان من أثرياء بيروت والذين جمعوا ثروتهم في المكسيك.

وبحديثنا عن الحمص بطحينة لا بد من الحديث عن أنواع الحمص، فصحن الحمص بطحينة العادي هو الذي يعرفه الناس جميعاً، أما إذا طلبت «حمص متمم» فيأتيك الحمص وفوقه كمية من الفول المدمس، وأما النوع الثالث فهو «الحمص المسلم» والذي يزاد عليه الصنوبر المقلي وقطع صغيرة من اللحم «لسانات عصافير» هكذا كان مفهوم الطائفية آنذاك، طائفية الحمص خلافاً عن الطائفية البغيضة التي نعيشها اليوم.

وحتى الطيور والأشجار هاجرتنا، فطائر الترغل الذي يغط على الأشجار في منطقة شارع الحمراء كان مقصد الشبان الذين يصطادونه بـ«التسعة ميلي». وغاب عصفور السنونو الذي كان يعشش كل سنة في الزاوية نفسها من سقف الحائط على مدخل عيادتي. ولم يبق من الأشجار بين البيوت إلا بعضها، فلا زنزلخت ولا تين أو حامض أو ياسمينة في الحديقة خلف البيت.

ولم تقتصر التغيرات على بائعي الخضر وصيادي السمك والمطاعم والأشجار بل شملت اللُحمة بين الناس، ففي أربعينيات القرن الفائت كنت أعرف كل العائلات التي تسكن على طرفي شارع جان دارك. هكذا كانت محلتنا، أما الآن، فإذا سألتني من يسكن في الطابق الثاني من البناية التي أسكنها أتردد قبل الجواب.

٣

مصطلحات

منذ ثلاثين عاماً أي مع بدء الاضطرابات في لبنان بدأت بقراءة الصحف اليومية بتمعن لأتابع ما يجري من أحداث. أما من قبل فكانت قراءتي تنحصر في صفحة الوفيات حرصاً مني على أن أقوم بواجبات التعزية. وفي خلواتي الروحية هذه الأيام، وما أكثرها، طرأت علي فكرة جمع وتدوين ما اكتسبته أدبياً وعلمياً وسياسياً وثقافياً من قراءة الصحف وتبين لي ما يلي:

(١) تعلمت معنى كلمة «غضون» التي تتكرر مراراً على وسائل المرئي والمسموع والمكتوب. فإبان الحرب القذرة كنا نسمع أن الأفرقاء المتحاربين اتفقوا على وقف إطلاق النار في غضون أربع وعشرين ساعة . وبعد التجارب العديدة وبعد فشل محاولات وقف إطلاق النار فهمت وللمرة الأولى أن كلمة «غضون» عندنا تعني تماماً عكس ما وردت في القواميس العربية.

(٢) «العناصر غير المنضبطة» فالعناصر التي ترتكب الاغتيالات والخطف والتدمير والسرقات ما هي إلا مجموعات معروفة من الجميع، لكن لأسباب لا مجال لذكرها أو تفسيرها قرر أمراء الحرب عدم كشفها لأن ذلك يضر بالأمن القومي والمصلحة العامة.

(٣) التأكيد على حرية الرأي والديموقراطية وحقوق الإنسان يثبت لنا عدم وجودها. وهذا درس تعلمته من الأستاذ الكبير الدكتور شارل مالك في صف الفلسفة في الجامعة الأميركية، فلا لزوم للتأكيد أن الأسد أسد أو النمر نمر أو العصفور عصفور إلّا إذا شككنا في ذلك.

(٤) لقد أكدت لي الافتتاحيات والدراسات والمقالات على صفحات الجرائد أن لا خلاص للبنان إلا بقيام أحزاب تدير شؤونه عبر المؤسسات الديموقراطية وتحت راية الدستور اللبناني. وفهمت معنى ذلك بعد عناء طويل. فحزب الله على سبيل المثل مئة بالمئة شيعي، كما هي حركة أمل، والحزب التقدمي الاشتراكي مئة بالمئة درزي، وحزب الكتائب ثمانون بالمئة مسيحي، عفواً ماروني والبقية تشكيلة من المذاهب المسيحية الأخرى. أما بالنسبة للأحزاب التي لا هوية طائفية لها، فالحزب الشيوعي فقد الكثير بعد وفاة عرابه الروسي «الاتحاد السوفياتي» وبقي ينفرد وحيداً مع شقيقه الكوبي. أما الحزب القومي الاجتماعي والذي أكنّ له محبة خاصة، فقد كان يوماً من أرقى الأحزاب في لبنان، لكنه أيضاً يتخبط بصراعات تضعف كيانه. ولم يبق سوى حزب واحد يطالب بأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة وهو الآن في بلدين عربيين يعانيان من أمراض خارجية وداخلية.

وكدت أنسى الأحزاب العلمانية وكلها يولد طرحاً لا حياة فيه. فما زالت العلمنة في أذهان الناس «صرعة» أطلقها المثقفون المهووسون، أما عند الآخرين فهي رديفة للكفر والإلحاد.

وماذا عن اليوم بعد خمسين عاماً وبعد اغتيال الرئيس الحريري وباسل فليحان وسمير قصير وجورج حاوي وغيرهم:

تكتلات مسيحية

حزب وحركة شيعيان

حزب درزي

تيار سني

يذكرني هذا بما نسمعه يومياً من تصريحات حول كيفية خروج لبنان من الأزمة الحالية، ويتردد في ذهني قول شهير لزعيم سياسي: أن لبنان ذو جناحين جناح مسيحي وجناح مسلم وبدون لقاء هذين الجناحين واتفاقهما لا قيامة للبنان. وبعد ربع قرن على هذا القول وصلت إلى الاستنتاج التالي: يا ليت لبنان، كسائر بلدان العالم بلا أجنحة، فالخوف، بفضل جناحيه المسلم والمسيحي، أن يطير.

٤

التطور اللغوي في لبنان

لي لذة خاصة بعالم اللغات والمصطلحات والألفاظ، وولعي الأخص هو باللغة العامية والدارجة اللبنانية. فقد تبين لي عبر السنين أن بعض المصطلحات التي استعملت منذ نصف قرن فقدت شعبيتها إذا صح التعبير، فتوارت عن السمع وحلّت محلها اصطلاحات أخرى منها ما برز فترة من الزمن ومنها ما بقي إلى يومنا الحاضر.

وفي طفولتي كنت أسمع من والدي كلمات اختفت من القاموس اللغوي، فعلى سبيل المثل لمّا كان والدي يغضب عليّ يقول «سكوت يا ديّوس» وبقيت كلمة «ديوس» في ذهني ولا أذكر أن سمعتها من أحد لا عنّي ولا عن غيري. وبقي مكان «ديوس» فارغاً إلى أن دخلت كلمة «محتال» التي تتداول الآن لتحل محلها. وأذكر أيضاً كلمات أخرى استعملت آنذاك تحت تأثير الحكم العثماني لآبائنا وأجدادنا مثل كلمة «سِكتر» أي اسكت أو «أدبسيس» أي بلا أدب،

أو تعبير «إكي بير» والذي يعني «نفس الشي» أي الأول والثاني لا يختلفان، فـ«إكي» تعني إثنين و«بير» تعني واحد.

ومنذ ربع قرن تقريباً زُجّ في اللغة الدارجة تعبير «فحل» والفحل بمعناه الجديد هو العظيم والذكي والمبدع كفيلم سينمائي فحل أو محاضرة فحلة أو أستاذ فحل. والمعنى الجديد لهذا التعبير لا علاقة له بمفهومي القديم لهذه الكلمة. فالفحولة تعني القوة الجنسية فقط لا غير ولا علاقة لها بنشاطات أخرى، ذهنية، فنية، أو أدبية. سبحان الذي يغير ولا يتغير.

أما التحية والسلام بين الناس فكانت «يسعد صباحك أو مساك»، «صباح الخير أو مساء الخير»، أو «سعيدة» في المساء. وعبر السنين وسهولة التواصل ما بين الشرق والغرب والاجتياح الثقافي الأميركي والأوروبي للبنان انتقل السلام إلى «هاي» و«باي»، و«تشاو» إلا عند المتدينين المسلمين حيث استمر «السلام عليكم» قيد الاستعمال. وهناك تعابير لحقها أيضاً بعض التغييرات، فبدلاً من «شكراً» أو «سلم دياتك» دخل علينا الـ«مرسي إلك» أو «ثانكيو إلك».

ولن أنسى أول اختباري بالمسيحية والإسلام عبر اللغة عندما لاحظت الاختلاف باللفظ بين المسيحي والمسلم في بعض الكلمات. ففي أسماء المهن مثلاً وبالأخص المهن على وزن «فعّال» كالنجار والحداد والحلاق والطباخ والفران، فالمسيحي يبدأ الاسم بالكسر والمسلم بالفتح. نَجار ونِجار، حَداد وحِداد، حَلاق وحِلاق. وزاد اهتمامي بهذه الظاهرة لما تأكدت أن لا شذوذ أو استثناء لها بأسماء المهن على وزن فعّال، فأوصلني فضولي إلى الدكتور أنيس فريحة رحمه الله الاختصاصي بعلم فقه اللغة في الجامعة الأميركية والذي أثاره هذا الاكتشاف ولم يجد أي جواب أو تفسير له.

وأخيراً لا بد من التأكيد أن لبنان هو البلد الوحيد في العالم الذي تستمر وتتناقل فيه المحادثة بين شخصين وبدون عناء أو تكلف بثلاث لغات: العربية والإنكليزية والفرنسية.

٥

المعارف والأصدقاء

من الطبيعي أن يكون للطبيب معارف كثيرة تنمو بسرعة. فالطبابة هي العلاقة الصادقة والعميقة بين إنسان وآخر ولا تمر بها أي مصالح أخرى. ويعتبر المريض أن طبيبه أصبح بين ليلة وضحاها أقرب الناس إليه وخصوصاً إذا توّجت هذه الزيارة الطبية بإزالة خوف مدمن من وجود مرض خبيث، أو إذا اكتشف الطبيب حقيقة مرضه وطمأنه إلى الشفاء العاجل والكامل.

في كل هذه الأحوال تبقى هذه العلاقة أقوى وأعمق من جهة المريض إلى طبيبه. فبالرغم من تفهم الطبيب لمريضه واهتمامه به ومساعدته له ـ وهذا جزء لا يتجزأ من مهنته الإنسانية ـ فليس بمقدور الطبيب أن يبادل مرضاه بعمق العلاقة التي يملكونها. فكرة المعارف عند الطبيب لا تعني كثرة الأصدقاء بالمعنى النقي للصداقة. فأنا أنعم والحمد لله بالعديد من المعارف وإني فخور وسعيد بذلك،

أما الأصدقاء فليسوا بكثر. فالصداقة لها تحديد خاص عندي، الصديق هو الذي تلجأ إليه وتصارحه بأعمق ما عندك والذي تتوافق معه بنظرته إلى الأمور الأساسية في الحياة كالوطن والدين والشرف والبخل والكرم وغيرها من الصفات التي يختلف مفهومها من إنسان إلى آخر. ومن ميزات هذا النوع من الصداقة تأثيره على صقل الشخصية وإنمائها لتصبح أكثر مناعة لمواجهة الصعاب، وسأذكر كلمة عن بعض هذه الشلّة الضيّقة من الأصدقاء والذين أنعم الله عليَّ بصداقتهم وعلّموني الكثير وساهموا في تحقيق سعادتي.

لن أتجرأ وأكتب عن نجيب أبو حيدر الذي هو المثال الأعلى للإنسان خوفاً من أن يشتمني من أعماق قبره. الدكتور نجيب كان المواطن اللبناني العربي العلماني الحرّ والمؤمن بوطنه والذي عمل الكثير له بصمت. أعماله فاقت أقواله. عمل هذا الرجل الكثير لبلدته حمانا ولولا نجيب لما بقيت حمانا وجوارها سالمة طوال الحرب القذرة. آمن بالقضية الفلسطينية وتعرض للأخطار والخطف من أجلها، وبالوقت نفسه كان أول المنتقدين للتصرفات الفلسطينية لما كانت هذه التصرفات تضرّ بالمصلحة اللبنانية. لن أبالغ إذا قلت إن نجيب كان أجرأ إنسان عرفته. كنت أسأله إبّان الحرب والقذائف تنهال علينا وأنا أرتجف خوفاً «ما بالك يا نجيب لا تخاف؟» جوابه بسيط وصادق «مش بإيدي يا منير، الظاهر «إنو» ما عندي «جين» الخوف. هي مش شطارة». هكذا كان نجيب ــ شجاع ولا يباهي بشجاعته، وأنا من المحظوظين الذين عرفوا وصادقوا وزاملوا وتعلّموا من نجيب أبو حيدر ــ رحمة اللّه عليه.

والصديق الثاني أسامة الخالدي ابن الأستاذ الكبير أحمد سامح

الخالدي من مدينة القدس وأخو الصديقين الأستاذ وليد الخالدي، وهو من أقرب المقربين إليّ، وأخيه الطريف والأستاذ اللامع الدكتور طريف الخالدي. أسامة الخالدي له الفضل الكبير بتوجيهي للأبحاث العلمية وصرف الساعات الطوال لأتفهم، ثم أتلذذ بالعلوم الأساسية بعدما كان اهتمامي منصباً على النواحي السريرية والعلاجية من الطب وعلى تطبيقاتها العلمية فقط. هذا الصديق نجح في نزع كل مخلفات «العظمة» والتباهي والتبجح التي كادت تجتاحني في السنين الأولى من مزاولة الطب، فالنجاح السريع ومحبة الناس ونظرتهم إلى أسفاري العديدة إلى بعض الدول العربية لأعالج أصحاب القرار من ملوك ورؤساء جمهوريات ووزراء وزعماء.. كل هذا كاد أن يزرع في ذهني مركّب الكبرياء القبيح. أنزلني أسامة إلى الأرض بلا جهد أو محاولة أو مسعى من جانبه سوى مراقبتي تواضعه العلمي واعتداله وبساطته رغم عمق علمه وأفكاره الخلّاقة. رد فعلي المعاكس لما كنت عليه جاء أقوى من تلك الحقيقة الفيزيائية المعروفة لإسحق نيوتن العالم الإنكليزي الكبير التي تقول إن لكل فعل رد فعل معاكساً وبالحجم نفسه. هذا التحول الجذري والأساسي في نظرتي إلى الدنيا وشؤونها يعدّ من أهم الأعمدة التي بنيت عليها حياتي المهنية والأكاديمية والعائلية والاجتماعية. فتواضعي المهني أكسبني ثقة زملائي وتلامذتي. وهمّي الوحيد أصبح وما زال مساندة الجيل الطالع من الأطباء ساعياً إلى تزويدهم بالمناعة الكافية ليتحملوا الظروف القاسية التي يعيشونها.

صداقاتي تتعدى الاثنين اللذين ذكرتهما، فلديَّ أصدقاء، وأخصّ بذلك أساتذتي في كلية الطب ومنهم الدكتور فؤاد صبرا رحمة الله عليه موسوعة الثقافة والعلم والذكاء الخارق والشجاعة والصبر والمرح وطيبة القلب. فؤاد صبرا علّمني أن الطب إضافة إلى العلم هو فن

كباقي الفنون، والعلاقة بين الطبيب والمريض هي علاقة فنية قبل أن تكون علاقة طبية. أقنعني بهذه الطريقة من التواصل مع المريض، فكانت من أهم أسباب نجاحي في مهنتي الطبية.

ولن أنسى الدكتور رياض طبارة رحمة اللّه عليه الذي ترأس المعارضة للتغيير في هيكلية دائرة الطب الداخلي في مستشفى الجامعة الأميركية آنذاك. مواقفه الجريئة والنبيلة حققت تغييراً جذرياً ونجحت بخلق أقسام للاختصاصات العديدة في الطبّ الداخلي كأمراض القلب، والرئة والكلى والجهاز الهضمي وغيرها، بعد أن كانت مجتمعة تحت لواء الطب الداخلي ــ وما زلت أذكر أني كنت أحد المعارضين الذين ساهموا بهذا التغيير ونجحت في سنة ١٩٦٠ في تأسيس قسم الجهاز الهضمي.

أما صديقي الآخر وأستاذي معاً فهو الدكتور إدمون شويري ــ أستاذ الأساتذة الذي دخل إلى علم الطب من بابه الواسع بعد أن تخلى عن اختصاصه السابق في علم الأنسجة. لذة الاستماع إلى تحليلات الدكتور الشويري عن آلية الأمراض وتصوره لمسيرة المرض لا تعلو عليها لذة. ومما يزيدني إعجاباً به أنه بالرغم من تقاعده من كلية الطب ما زال إلى اليوم منكباً على دراسة وتحليل آخر ما توصلت إليه الأبحاث الطبية.

وأنبل النبلاء وأطيب الطيبين الدكتور منيب شهيد رحمه اللّه كان مثل التواضع بالرغم من موسوعية علمه الكبير. وبالرغم من الفارق الكبير بين معلوماته ومعلوماتي آنذاك، لما كنت طبيباً مقيماً في مستشفى الجامعة، كان يستشيرني دائماً في أي تطور جديد في عالم الطب. هذا التواضع الذي استهلته من هؤلاء العظماء، والناتج

من الثقة بالنفس، ساهم إلى حد كبير في بلورة شخصيتي الأكاديمية.

وأخيراً وليس آخراً لا بد من ذكر شلّة من الأصدقاء الذين بفضلهم حصلت على «غرامات» السعادة التي أملكها، فمنهم الجرّاح الذي أحرجني بكرمه والكاتب الذي شجّعني على الكتابة والصديقة العزيزة التي شاركتني في كل المجالات الفكرية والسياسية والطبيب الطيّب الذي واكب كل اهتماماتي الرياضية.

٦

الطب إيجابية وسلبية

بعد عودتي من الولايات المتحدة إلى بيروت سنة ١٩٥٧ عملت مدرساً لأمراض الجهاز الهضمي في كلية الطب في الجامعة الأميركية. مارست التعليم بحماسة وشغف، وأحببت العلاقة الطيبة بين الأستاذ والتلميذ، وبقدر ما أعطيتهم من معلومات تعلمت منهم الكثير، وكانت أسئلتهم المثيرة حافزاً لي على مواكبة التطورات الحديثة في مجال اختصاصي. التعليم مهنة رائعة، ولا بد من القول في هذا المجال أن معظم علاقاتي وصداقاتي مع العديد من الأطباء في لبنان والخارج هي مع تلامذتي الذين أصبحوا في ما بعد من كبار الأساتذة في كليات الطب في لبنان والولايات المتحدة.

إضافة إلى وظيفتي الأكاديمية في المركز الطبي كان عليّ أن أعمل سريرياً أيضاً. فبعد شهرين من مجيئي جهزت عيادة من غرفتين في منزلنا الواقع في أول شارع جان دارك. مرّت أيام عديدة وأنا وحيد

في العيادة، لا تلفون يرن ولا مريض يسأل. ولتمرير الوقت كنت أنزل يومياً إلى مطعم الأنكل سام في الطابق الأول من البناية وأجلس مع ابن خالتي سامي خوري صاحب المقهى وأشرب القهوة.

مر أسبوع أو أكثر وأنا كعادتي في المقهى مع شلة من الأصدقاء أذكر منهم طوني بخعازي ونبيل أشقر وأحياناً المعلم جبران عازار «المزين»، إلى أن دخلت سكرتيرتي يوماً إلى المقهى وقالت بلهجة المنتصر «حكيم، حكيم عندك مريض». فنظرت إلى رفاقي واحداً واحداً بابتسامة عادية، وكأن وجود مريض عندي أمر عادي. «متأسف للتأخير ـ قلت للمريض ـ فكما تعلم كنت في غرفة الطوارىء والحمد لله تمت الأمور على خير». فرد المريض قائلاً بلهجة حلبية «يعطيك العافية يا حكيم ولا تواخذني، جئت بلا موعد. سمعت عنك الكثير من زميل لك في الدراسة وجئت خصيصاً من حلب لأتعاين عندك».

أبقيت هذا الشاب في عيادتي أكثر من ساعة. استجوابات دقيقة عن تاريخ العائلة، وفحص مطوّل، وكما يقول المثل «من طأطأ للسلام عليكم». أعجب المريض بعنايتي الفائقة وقال لي: من الآن فصاعداً أي مريض من حلب يشكو من مشاكل هضمية سأنصحه بأن يستشيرك.

نزلت بعدها إلى الأنكل سام حيث كان الجميع ينتظرونني بفارغ الصبر. وبصوت واحد سألوني «شو كان معه هالمريض؟» فأجبت «كان معه خمس وعشرون ليرة».

تحسنت الأحوال تدريجياً بعد المريض الحلبي الأول وبدأ التلفون يرن

يومياً، وأكثرها أسئلة تفادياً للمعاينة.. إلى أن ذكرت لي سكرتيرتي أن شخصاً يريد مكالمتي بخصوص زيارة طبية إلى بيته. «أنا اسمي متري وعندي مشاكل بالجهاز الهضمي لكني لا أستطيع الذهاب إلى عيادتك لأني مصاب أيضاً بمرض القلب ولم يسمح لي طبيبي بصعود درج عيادتك». فاتفقنا على موعد في اليوم التالي الساعة السادسة مساءً.

لبست البدلة الجديدة مع ربطة أنيقة وذهبت إلى منزل الخواجة متري في الطابق الرابع من بناية قرب أوتيل بريستول. رجل في الستين من العمر أنيق المنظر يرتدي «روب دو شامبر» فوق بيجاما من اللون الأزرق الفاتح ووشاحاً من الحرير. سألته كيف اهتدى إلي ولم يكن لي أكثر من شهرين في لبنان. قال «إن طبيبي الدكتور فؤاد صبرا الأستاذ الشهير والأخصائي الكبير في الأمراض العصبية وهو يعالجني منذ عدة سنين، حدّثته عن شكوى لي من اضطراب في البطن فنصحني باستشارتك لكونك اختصاصياً في الجهاز الهضمي».

بدأت المعاينة الساعة السادسة مساءً. بعد سؤالي «شو مشكلتك» انهار علي بتاريخ حياته منذ البدء. لم يُتح لي أن أقاطعه. الساعة الثامنة مساءً أي بعد ساعتين من اللمحة التاريخية قاطعته وسألته «ماذا كان رأي الدكتور مرعب في قضيتك؟» والدكتور مرعب أو بالأحرى البروفسور مرعب رحمة الله عليه كان من ألمع وأشهر أطباء الطب الداخلي آنذاك. ابتسم الخواجة متري ونادى خادمته «أديل جيبي الملف يلي على الطاولة بغرفة النوم». جاءت أديل بالملف وهو كناية عن مجلد سميك يحتوي على مئة صفحة وأكثر. أخذ الملف وبدأ يتمتم وهو يقلب الصفحات، وفسّر لي أن المجلد بالفرنسية ومنظم بالترتيب الأبجدي «مرعب بحرف الـ ...M»

مخيبر، معوض ومرعب. أسماء للأطباء في ذلك الوقت. الدكتور ألبير مخيبر الطبيب الشهير والسياسي المعروف، والدكتور معوض طبيب القلب المشهور. «عايننى الدكتور مرعب عدة مرات فهل تريد أن أقرأ لك ما قال لي؟».

من الصعب وصف حالتي النفسية آنذاك! مزيج من اليأس والقنوط والغضب والذل، وكادت الدموع تسيل من عيني... وبدأت الهواجس تمر بمخيلتي ـ أهذه هي نهاية الخمس سنين في كلية الطب ثم ثلاث سنين طبيباً مقيماً في مستشفى الجامعة الأميركية وأخيراً سنتي اختصاص بأشهر كليات الطب في أميركا؟ أهذا هو الطب: لتستمع إلى مريض عن غازاته ونفخة بطنه وتشنجات في أعصابه كلما سمع خبراً مزعجاً.

أخذت نفساً عميقاً وتذكرت كتاباً قرأته وأنا في صغري وهو «صبر أيوب ـ كيف صبر وابتلى». «أكمل وصفك يا خواجه متري».

انتهت المعاينة الساعة التاسعة أي بعد ثلاث ساعات، ودفع لي الخواجة متري خمساً وثلاثين ليرة فأخذتها وقلت له «خواجة متري، من الآن فصاعداً كلما تفكر باستشارتي أدفع لك خمساً وعشرين ليرة معاينة حتى تستشير غيري». لم يغضب هذا الرجل من كلامي واستطرد بهدوء «ما في مانع يا دكتور، لكن شو رأيك أكلمك على التلفون مرة في الأسبوع ولمدة ربع ساعة فقط وأدفع لك خمس عشرة ليرة على المكالمة؟». أجبته بالرفض. وكانت هذه المقابلة الأولى والأخيرة مع الخواجة متري.

وفي اليوم التالي مررت على أستاذي وصديقي الدكتور صبرا رحمة الله عليه وقلت «شو عاملّك يا معلمي؟» فضحك لما سردت له

الحادثة وقال لي «الخواجة متري اسم على مسمى، فاسمه متري معصّب ـ فهو معصَب بفتح الصاد ومعصّب بكسرها».

بعد أقل من أسبوع على حادثة الخواجة متري رنّ التلفون في البيت بعد منتصف الليل «دكتور شماعة، الرجاء أن تأتي بسرعة إلى بيت السيد معيقل الواقع في شرق العاصمة قرب مستشفى الجعيتاوي، فالمريض يعرفك ويثق بك ويذكر أنك أشرفت عليه منذ عدة سنين في مستشفى الجامعة الأميركية لما كنت طبيباً مقيماً آنذاك. وأنا من غير شر ما بعرفك». طلبت ليبانون تاكسي وأوصلني إلى البيت المذكور بسرعة فائقة فشوارع بيروت بعد منتصف الليل خالية تماماً. دخلت إلى صالون البيت ووجدت شاباً واحداً لا أعرفه ولا يعرفني. وبدون أي مقدمة نظر إلي، وكنت آنذاك شاباً نحيلاً في التاسعة العشرين من العمر، وقال لي «يرضى عليك ساعدني بصف الكراسي». فهمت ما جرى ولم أعترض ولم أذكر من أنا. فقمنا بصف الكراسي والكنبايات على جانب الدار. «يعطيك العافية». وخرجت من البيت.

لم أر المريض الذي يعرفني واستنتجت أنه مات، ولم يعرف هذا الشاب أنني طبيب. رجعت إلى البيت بعد صف الكراسي ودفع ست ليرات للتاكسي.

النظرة إلى الطب والطبيب عند الناس في لبنان أن هذه المهنة كلها سمن وعسل. فالطبيب يجني المال الوفير وكما يقال «بدسة نبض» ويدخل المجتمع المخملي بلا واسطة مهما كانت طبقته الاجتماعية ويتمتع بمحبة الجميع واحترامهم وتقديرهم. ولا شك أن هذه المهنة هي من أنبل المهن وأمتعها، فالعلاقة الفريدة بين الطبيب والمريض تختلف عن علاقات الناس فيما بينهم في المهن الأخرى بصدقها وعمقها وعاطفتها وعفويتها. فما من مريض يستشير طبيباً ليكذب

عليه أو يعطيه معلومات خاطئة، وما من مريض يملي على الطبيب رأيه واقتراحاته الطبية.

كل هذا صحيح، لكن إضافة إلى السمن والعسل هناك التعب الجسدي والنفسي والمسؤولية الكبيرة عن أغلى شيء عند الإنسان وهي صحته، فضلاً عن الخوف من القرار الخاطىء وتحمل شكاوى الناس طوال الساعات الطويلة في العيادة، فما من مريض يأتي للطبيب لإخباره نكتة طريفة أو حكاية ممتعة. يدخل المريض وبعد السلام يبدأ «بالعنّ» والشكوى والتذمر والبكاء أحياناً. كل هذا جزء لا يتجزأ من مهنتنا فالطبيب هو الأب الحنون والصديق الصدوق وحائط المبكى لكل من اختار استشارته.

وقد تصل الأمور أو العلاقة بين المريض والطبيب إلى أبعد من ذلك أحياناً، فيتغلب البصل على السمن والعسل كما سأورد تالياً. سنة ١٩٥٢ كنت أكمل السنة الثالثة من متابعة اختصاصي بالطب الداخلي في مستشفى الجامعة الأميركية قبل ذهابي إلى الولايات المتحدة للتخصص بالجهاز الهضمي. وفي هذه السنة يصبح الطبيب المقيم مسؤولاً عن كل مرضى الدرجة الرابعة في المستشفى. يشرف على هذا القسم أستاذ في الطب الداخلي والذي يزور المرضى مع الطبيب المقيم لثلاث مرات في الأسبوع ويراجع معه تفاصيل المرض وتطوراته. أما الطبيب المقيم فيبقى مع المرضى كل ساعات النهار وبعض ساعات الليل، ولذا فإن مرضى الدرجة الرابعة يعدّونه المسؤول الأول.

كان بين المرضى في هذا القسم امرأة في الخمسين من العمر دخلت بحالة طارئة بسبب نزيف حاد في المعدة، وبعد الكشف وإجراء الفحوص نقلنا في عروقها كمية كبيرة من الدم. بعد عدة أيام

أجرينا لها تصويراً شعاعياً تبين منه أن النزيف ناتج من كتلة سرطانية في المعدة.

وكان أمين، زوج تلك المرأة ويعمل بائع صحف في ساحة البرج، يزور زوجته يومياً ويمر علي بعدها للاستفسار عنها. وتبين لي تعلق أمين الشديد واهتمامه بزوجته. مساء ذلك اليوم الذي اكتشفنا فيه سبب النزيف، دخل أمين إلى مكتبي كالعادة وقال لي مبتسماً «الظاهر يا حكيم أنها أحسن كثير والله يقدرنا على مكافاتكم». دقيقة صمت وحيرة راجعت فيها كيفية إخبار هذا المسكين عن مرض زوجته. «اسمع يا أمين، زوجتك الآن بحالة ممتازة وتوقف النزيف لكن نزيفها ناتج من سرطان في المعدة». لم أكمل كلمتي حتى سمعت صراخاً بصوت أمين الأجش «سرطان ـ سرطان ـ بدال ما تطمني بتقول سرطان ـ ما بتعرف إنه معي ضغط وسكري، وبتقلي سرطان يا حمار» ورفع يده ليصفعني، فهربت من الغرفة وتسلقت الدرج إلى الطابق التالي وأمين يتبعني صارخاً بأعلى صوت «سرطان يا حمار» إلى أن أوقفه زملائي الأطباء.

المغزى من هذه الحادثة المبكية المضحكة، إضافة إلى العسل والبصل كما ذكرت من قبل، أن الطبيب كغيره من الناس معرّض للشتم والبهدلة والضرب إذا توفرت الظروف. أما الدرس الذي تعلمته من تجربتي مع بائع الصحف، فهو أنه قبل البوح بالحقيقة عليك أن تدرس شخصية وظروفه وتوصل الحقيقة إليه بطريقة لا تستفزه كما استفززت أنا بائع الصحف.

حوادث فريدة علمتني الكثير وثبتت قدميّ على الأرض. قد تكون تجارب مضحكة وحزينة لكنها غنية بمضمونها وتبرز للقارىء حقائق عن الإنسان في لبنان وعاداته.

٧

الحلاقة والحلاقين

من التغيرات الجذرية التي لاحظتها في عادات الإنسان البيروتي والتي حصلت بُعيد النصف الأول من القرن العشرين هي حلاقة الذقن. ففي طفولتي أذكر أن حلاقة الذقن عند أبي تضمنت استعمال الموسى الطويلة والتي تُشحذ قبل كل عملية حلاقة على زنّار عريض من الجلد المزيّت. حركات تذكّر بأيدي قائد الأوركسترا السيمفونية. والطريقة الثانية آنذاك والتي رأيتها للمرة الأولى مع أخي الكبير ميشال، هي شفرات رقيقة توضع بآلات حلاقة خاصة. ومشروع الحلاقة آنذاك يختلف كثيراً عنه اليوم، فلم يكن بالسهولة أو السرعة التي نحلق فيها أذقاننا، متطلباً دقّة ومهارة ويداً ثابتة، وألّا تغرق الذقن ببحر من الدم لا يوقفه إلا مسحة من «الشبّة البيضاء» المكونة من سولفات الألومينيوم، وهي عبارة عن أصبع يشبه التحميلة يمرر فوق الجروح لمنع النزيف، وإن أوجب الأمر الاحتياط يطلى الوجه بكمية وافرة من البن المطحون

ويُلفّ الرأس بمنشفة باردة ومرطبة.

وفي منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي انتقلت حلاقة الذقن من البيت إلى صالون الحلاقة، وأصبحت هذه العادة عرفاً أو تقليداً تمارسه فئة معيّنة من الطبقة الوسطى والأكاديمية وأصحاب النفوذ. في صغري، أي بين الخامسة والعاشرة من العمر مررت بعدة حلاقين. أولهم إميل حاماتي في شارع المكحول. تركته بعد أن أخطأ يوماً فأصاب سالفي اليمين بالمقص وقطع نسرة من أذني. انتقلت بعدها إلى رأفت البخعازي الشاب الوسيم ذي الصوت الجميل والذي كان يشنّف أذني بأغاني الموسيقار الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب، وحفظت الكثير منها وما زلت أردد إلى اليوم «سهرت منه الليالي مالي الغرام ومالي». أقفل رأفت صالون الحلاقة وفتح مطعماً صغيراً يقدم أشهر المازات اللبنانية.

وفي أيام الدراسة في كلية الطب اخترت الحلاقة في صالون المعلم سليم جرداق المواجه للباب الرئيسي للجامعة الأميركية والذي عرفني إليه أخوه شهيد، أحد أقدم سائقي السيارات العمومية في رأس بيروت. أذهب يومياً قبل الساعة الثامنة للحلاقة على يد المعلم سليم، يليها تدليك للرأس والرقبة بعطر اسمه «البلسم الهندي» على يد المساعد جان بينما يقف المعلم سليم أمام المرآة «يتصبب» على وجهه الجميل.

وبعد تخرجي طبيباً وانتقالي إلى منزلة اجتماعية أعلى من قبل، نصحني ذوو المعرفة بأن أغير حلاقي إلى حلاق يتناسب مع مركزي الجديد. فانتقلت بضعة أمتار إلى الغرب في الشارع بلس إلى الحلاق الآخر والذي ما زال إلى اليوم حياً يرزق بصحة جيدة وعقل سليم.

جبران عازار ابن عازار جبور والذي كنا ندعوه «عمي عازار» المسؤول عن الإدارة المنزلية في المدرسة الابتدائية التابعة للجامعة الأميركية. وعمي عازار كان شيخاً بهياً ذا شارب أبيض كثيف وشعر أبيض ناصع كالثلج الجديد على جبل صنين. ولهذا الشيخ الجليل أولاد، منهم جبران المعروف حينها بجبران عازار لا جبران جبور. ترك جبران المدرسة وهو في الرابعة عشرة من العمر لأن الدراسة حسب قوله لم تكن من الأولويات. عمل أولاً في صالون المزين الياس نحاس واقتصرت وظيفته على تكنيس المحل ونفض غبار الشعر عن الزبون. انتقل بعدها ليتدرب على المهنة عند المعلم زكي رامح الذي يعمل في دكان في بناية «فسك» داخل الجامعة الأميركية، وبعد أربع أو خمس سنين أتقن المهنة وبدأ يقص شعر الأساتذة والتلامذة في الجامعة مما زاد من علمه وثقافته ومعرفته في هذا الجو الأكاديمي العريق. قصير القامة سريع الحركة والخاطر، وموسوعة من الأمثال والنوادر الطريفة. له آراء ثابتة في الأوضاع المحلية والدولية. من خصائصه الافتخار بالمجموعة الخاصة من زبائنه فلم يمر يوم وذقني تحت رحمة موساه إلا قال: «لو سبقت شوي يا حكيم»، أي لو أتيت إلى الصالون قبل بضع دقائق، لكنت رأيت الأستاذ شارل مالك أو معالي الوزير جميل مكاوي أو الشيخ نجيب علم الدين أو السيد عمر السقاف» إلى ما هنالك من كبار الشخصيات التي تقصد المعلم جبران عازار.

واشتهر المعلم جبران بقص الشعر، وكان من أمهر وأسرع من مارس هذه المهنة. فلا تمضي عشر دقائق حتى تسمع «نعيماً». أما الحلاقة بالموسى فموضوع آخر، إذ لم يكن المعلم جبران ماهراً بما فيه الكفاية ولا يملك البراعة اليدوية المطلوبة. وكنا جميعاً نأمل عند وصولنا صباحاً أن يكون دورنا مع المعلم موريس، الشاب الطيب والمهذب

والذي أتقن فن حلاقة الذقن بطريقة تجعلك تسترخي تماماً أمام شحطات موساه على الذقن. أما المعلم جبران فكان بعد كل تمريرة لموساه نزيف من الذقن يعالجه بلطشة من الشبّة البيضاء. وطريف الذكر أن المعلم جبران لم يتأثر نفسياً ولم يصب بمركب نقص. وكان يخبر كل زبائنه الجدد عن التلميذ القبطي المصري الذي كان يدرس الصيدلة في الجامعة الأميركية والذي أمعن جبران في تشطيب ذقنه إلى أن وقف ذلك الشاب مرة بذقنه الدامية وقال له: يا معلم جبران من الأفضل أن تغيّر اللافتة على الباب من «مزين» إلى «مزين وجراح».

جرت العادة أن أدفع حساب قص الشعر والحلاقة شهرياً. وكل آخر شهر كنت أسمع من المعلم جبران الأنشودة التالية: «أنا يا حكيم بشتغل من الفجر إلى النجر، يأتي الزبون وأقعده على كرسي مريح وأقص شعره ثم أحلق ذقنه وبعدها منشفة سخنة ومنشفة باردة لأطرّي جلدة وجهه، ثم فريكسيون لرأسه بكولونيا عماطوري وأحياناً قهوة تركية على ذوقه وكل هذا بثلاث ليرات، وأنت يا حكيم «بجسّة نبض» بتقبض خمس وعشرين ليرة».

استمرت الحلاقة عند المعلم جبران من الخمسينيات إلى الثمانينيات عندما اضطر إلى إقفال دكان الحلاقة لأن «الخواجات» تركوا رأس بيروت ولم يبق سوى ميليشيات الحرب القذرة التي عاثت فساداً بهذه المنطقة من بيروت.

إضافة إلى جبران عازار، نعمت رأس بيروت بأمهر الحلاقين على رأسهم إيليا البخعازي الملقب بـ«العريس» وذلك لأنه استمر أكثر من ثلاثين عاماً يفتش عن رفيقة عمره إلى أن وجدها في آخر المطاف. دكان إيليا العريس في شارع بلس أيضاً قرب مطعم فيصل

الشهير، وحين صالونه الصغير ترى عصفوراً صغيراً من فصيلة «أم سكعكع» أو أم صفيدة وهو نوع من الزرازير. يتمشى هذا العصفور في باحة الدكان وهمّه الوحيد اصطياد الذباب، فلا تمر ذبابة إلا التقطها والتهمها بسرعة فائقة. أما الذبابات التي تفلت من منقاد الزرزور فتلاقي حتفها في صحن على مدخل المحل مملوء بالعلق الذي إن غطت عليه الذبابة وقعت في الأسر.

تعلمت الكثير عن تاريخ الحلاقة في لبنان من المعلم إيليا. فللحلاقين في تلك الأيام وقبلها مهن متعددة من «قلع الأضراس» إلى وضع كاسات الهواء الساخن على الظهر لامتصاص الرشوحات الصدرية إضافة إلى وضع «العلق» وهو الدودة التي تمتص الدم على رقبة المريض لمعالجة ارتفاع الضغط وأمراض أخرى.

إيليا العريس بالرغم من كونه أمهر الحلاقين والمعروف برشاقته ونعومة لمساته على الموسى أو المقص، لم تعطه هذه المهنة اللذة الكافية وكان همه الوحيد أن «يخلص» من الزبون ليذهب إلى دكان ميشال ربيز الملقب بالأبرص لشعره الأحمر ليلعب «دق» محبوسة وبعدها يجلسان على رصيف الدكان في شارع المكحول ويشربان العرق معاً مع مازتهما المعهودة «ترمس» وبزر بطيخ وتنفيخ سيكارة بافرا. «أنت يا حكيم ما بتعرف تشرب عرق، أنت بتاكل مازة» قال لي المعلم إيليا في إحدى الجلسات التي شرفني بوجوده فيها. «العرق يمزمز ببطء وبعد كل «مزَة» بتنفخ مجة من البافرا وتأخذ نفساً طويلاً. تصبّب على المازة يا حكيم، وهي للفرجة مش للأكل، وخصوصاً المازة ذات الألوان الجميلة بالأخضر والأحمر مثل الخس والبقلة والخيار والبندورة والفليفلة الحلوة». وتابع العريس يقول إن صديقنا الدكتور يوسف إبش رحمة الله عليه، أستاذ التاريخ الشهير،

أخبره يوماً وفي جلسة مماثلة أن أحد المقاهي في دمشق «يؤجر» المازة ليتصبب عليها الزبائن ويرجعونها بعد انتهاء الجلسة. رحمك الله يا إيليا العريس! كلما أشرب كأساً من العرق تطوف بذهني كلماتك وتذكرني أن آكل وأشرب وأمزمز ببطء.

وأخيراً وفي هذا السياق لا بد من ذكر حلاق آخر لا يقل أهمية عن جبران عازار وإيليا العريس. إنه الياس سفر صاحب المحل في شارع بلس أيضاً بالقرب من صالون جبران عازار، وما زال ابنه فيليب إلى اليوم حياً يرزق ويعمل بصالون والده الذي توفي منذ أكثر من عشرين عاماً. الياس سفر كان معلم «القانون» أولاً وحلاقاً ثانياً، ومن الأوائل الذين عزفوا على هذه الآلة الموسيقية في بيروت. حبه وشغفه بالموسيقى والعزف يلهيه عن مهنته. وكم من زبون انتظر المعلم الياس إلى أن تنتهي «الدقة» قبل أن ينصرف إلى الحلاقة.

بعد هذا الوصف للحلاقة في لبنان عامة وفي رأس بيروت خاصة لا بد من القول إن الحلاقة في العالم الغربي مرت في تجارب مماثلة، فنقابة الحلاقين في بريطانيا ومنذ مئات السنين كانت المسؤولة عن العديد من الإجراءات الطبية والجراحية مثل قلع الأضراس والتشطيب، والجدير بالذكر أن الجراحين في بريطانيا يلقّبون بـ«مستر» وليس بالدكتور لأن نقابة الحلاقين أصبحت على مر الزمان نقابة الجراحين في بريطانيا.

وفي الآونة الأخيرة، بعد أن اختلفت مع حلاقي الأخير، نصحني صديق لي أن أذهب إلى أحد أمهر الحلاقين في بيروت. صالون أنيق وموسيقى ناعمة وأنامل بارعة في قص الشعر وتقليم الأظافر. أما التعريفة «فضربة مقص» توازي «جسّة نبض»!

القسم الثاني

تيتي تيتي...

تمهيد

في ١٣ نيسان ١٩٧٥ كنت في السابعة والأربعين من العمر وفي ذروة نشاطي المهني والفكري والجسدي، كما كنت ناشطاً في ممارساتي للشؤون الاجتماعية والوطنية. فقوميتي العربية التي اكتسبتها في سن الدراسة وكنت مؤمناً «آنذاك أن ذلك اليوم آت حين تصبح جميع الدول العربية من المحيط إلى الخليج بلداً ديموقراطياً علمانياً حديثاً واحداً» وذلك استناداً إلى ارتباطي بالقضية الفلسطينية وإيماني بعدلها الذي أخذ قسطاً كبيراً من نشاطي والأخص مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بفضل علاقتي وصداقتي مع مؤسسيها. فالدكتور جورج حبش والدكتور وديع حداد رحمهما الله، والأستاذ هاني الهندي هم من أعز أصدقائي ومن أنبل الناس الذين تعرفت إليهم. وساهمت بقدر المستطاع بتحسين المستوى الطبي للجبهة. وقد سببت لي هذه العلاقة التي أعتز وأفتخر بها بعض المشاكل التي تعرضت لها. ففي تلك المرحلة

ذهبت إلى المملكة العربية السعودية لجمع تبرعات للقضية الفلسطينية عبر معاينتي للمرضى السعوديين وجمعت مبلغاً من المال أوصلته إلى صندوق الجبهة الشعبية، ولما أكتُشف هذا الأمر حرمت من دخول المملكة كشخص غير مرغوب منه لعدة سنوات، إلى أن أمر الصديق الأستاذ عمر السقاف الذي كان وزير دولة للشؤون الخارجية بشطب اسمي من اللائحة السوداء.

وللسبب ذاته كنت على اللائحة السوداء في المملكة الأردنية، والشكر للصديق الدكتور كامل الشاعر الذي ساهم بشطب اسمي منها.

وأخيراً وليس آخراً انتميت في سنة ١٩٧٦ إلى تيار فكري مع نخبة من المثقفين منهم الدكتور نجيب أبو حيدر رحمه الله والدكتور حسن مشرفية والأستاذ بهيج طيارة والآنسة ليلى قاضي، وعملنا على تأسيس مؤسسة الدراسات والأبحاث اللبنانية وكنت عضواً ناشطاً فيها. ومعظم الأفكار الواردة في هذا الكتاب هي من منتوج تلك الحقبة.

والآن وقد مضى أكثر من ثلاثين عاماً عن تلك المرحلة وجدت من كتاباتي أننا ما زلنا كما كنا «مكانك قف».

١

شخصية اللبناني العربية

مهنة التطبيب علمتني الكثير عن الإنسان العربي عامة واللبناني خاصة، ومن الخطر دائماً التعميم بشأن شخصية أي شعب ولذلك يجب أن يؤخذ ما أقوله بحذر. هذه هي الحال خصوصاً أنه يندر أن تستند مثل هذه الآراء إلى التحليل الاختصاصي أو المقارنة مع «شعب آخر»، وفي أحسن الأحوال يمكن أن تعتبر هذه الانطباعات عامة وغير موثوقة. وسأبدأ أولاً بالإنسان اللبناني لمعرفتي الحميمة به:

(١) اللبناني شخص متطلب جداً ولا يرى سبباً أو حجة أو رادعاً يمنعه من التطلب. فإذا سافر لبناني على طيران الشرق الأوسط اللبنانية مثلاً، يعتبر أنه شريك للشركة وله عليها الكثير، وعلى الموظفين القائمين عليها في الخارج أن يهتموا بكل شاردة وواردة من شؤونه الخاصة من سكن ومأكل وسهر، وعتبهم كبير إن لم تؤمن لهم تلك الخدمات. وإذا أجرى لبناني معاينةً

عند طبيب يصبح الأخير ملكه الخاص ويحلو له أن يكالمه متى شاء، ولن أنسى العديد من المخابرات التلفونية بعد منتصف الليل من مرضى يسألون، وبدون اعتذار إن كنت نائماً أم لا؟ عن أمور بسيطة تنتظر إلى الصباح. وعلى سبيل المثال، رن التلفون يوماً الساعة الثانية صباحاً وسمعت ضجة وموسيقى وإذ بالأخ يسألني سؤالاً مصيرياً لا ينتظر بزوغ الفجر «هل الزيتون الأسود يضر الكبد؟». ولهذه الصفة التطلبية إيجابيتها أيضاً، فاللبناني المتطلب مستعد للمساعدة والخدمة بلا تردد ويعمل أكثر ما يطلب منه في هذا المجال، فإن تهت في التفتيش عن عنوان يمشي معك ليوصلك إليه، وإن ثقب إطار سيارتك يساعدك على رفع السيارة وتغيير الإطار، وإذا طلبت أي نوع من العون يستجيب بمحبة. فاللبنانيون يتعاطفون بقوة مع جيرانهم. مشكلات جيرانهم المالية والاجتماعية والطبية أو ما عدا ذلك مشتركة، ويؤمن هذا التشارك علاجاً نفسياً داعماً ومهماً وهو عنصر رئيسي في تمكينهم من مقاومة الظروف الصعبة التي يعيشونها. وما الصمود العنيد للشعب اللبناني أثناء السنوات الخمس عشرة من العداوات ومحاولات تقسيمهم أثناء الحرب الأهلية إلا مثل واضح على هذه الخاصية.

(٢) تكتسب قيمة الإنسان في لبنان قيمة أكبر إذا أضيفت إليها صفة لإكمال إنسانيته، فإما أن يكون غنياً، أو في منصب مهم. وإذا كان ذلك الشخص مرتبطاً بزعيم أو رجل دين أو سياسي أو ميليشياوي أو عشائري تكتمل إنسانيته.

(٣) لم ينجح اللبنانيون في تشكيل أي حزب سياسي إلا وكان ذا منحى طائفي. والمحزن في هذا المجال أن هذه الظاهرة تزداد بمرور السنين، فمنذ خمسين عاماً كانت أهم الأحزاب

والحركات والتيارات الفكرية مبنية على أسس عقائدية لا علاقة للأديان بها، فالحزب القومي السوري وحزب البعث العربي والحزب الشيوعي اللبناني وحركة القوميين العرب كلها أحزاب لا دخل للدين فيها. وعلى مرّ السنين اضمحلت هذه الأحزاب وخلفتها أحزاب وتيارات وتكتلات مسيحية وسنية وشيعية ودرزية.

وهناك خصائص تشمل اللبنانيين والعرب جميعاً. فالمجاملة خصيصة عربية وقد تكون أحياناً طقوسية «أي للمسايرة فقط» لكنها تجعل الحياة سهلة ولطيفة. وتشمل هذه الصفة الكل أغنياء وفقراء. ومن أنبل الخصائص العربية الحب والاحترام اللذان يكنهما العربي لشيوخه. وهذه الخاصية هي بالتأكيد أفضل منها في أي مكان آخر. إن بيت الشيخوخة للمسن في المجتمعات العربية هو بيت أولاده وأحفاده، مما يجعله أسعد وأقل وحدة ويعامل كزعيم صوري في بيته، بينما المسنون في البلاد «المتحضرة» يرسَلون إلى بيوت الشيخوخة التي لها كل الوسائل الحديثة لكنها تفتقر إلى أغلى ما يطلبه المسن وهي لمسة محبة العائلة.

وأخيراً وليس آخراً لا بد من الإقرار بأن اللبناني ملك «التشفيط»، وهذا لا يقتصر على ملك الفلافل وملك البطاطا وملك البطيخ عند أصحاب هذه المهن، فاللبناني الذي يملك دكاناً لا تسع لأكثر من كرسي يسمي هذا الدكان محلات ومؤسسة أبو العبد التجارية مثلاً. ويشتمل التفشيط مهنة الطب أيضاً، إذ ما علينا إلا أن نقرأ ما يكتبه بعض الأطباء أمام مراكز عياداتهم: الطبيب فلان أخصائي بالأمراض الداخلية والأطفال والنساء. فسبحان الذي أعطاه هذه الموسوعة من العلم بينما أجد نفسي بعد نصف قرن من متابعة

اختصاصي الضيق ما زلت أجهل الكثير.

إن هذه الظاهرة عند الإنسان اللبناني هي أقوى برهان على انتمائه العربي الأصيل. والذين يشكّون بعراقة اللبناني بهذه الخاصية ما لهم إلاّ الرجوع إلى أسلافهم العرب منذ أكثر من ألف سنة.

قال المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

ثم حلّق بالتشفيط لما قال:

وكيف لا يحسد امرؤ علَم له على كل هامة قدم

وقال أبو العلاء المعري:

إني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

إضافة إلى مئات الأبيات الشعرية بدءاً بالسموأل وعنترة بن شداد والفرزدق والأخطل وجرير... كلها تؤكد أصالة التفشيط الوراثية للشعب العربي عامة واللبناني خاصة.

٢

نظرة إلى الإنسان في لبنان

يذكّرني لبنان بغدّة في البطن تدعى البنكرياس. وكلما تعمقت في دراسة البنكرياس يتضح لي أنها أشبه بعبوة قابلة على الدوام للانفجار. ففي هذه الغدة جميع أنواع المواد الكيماوية الفعالة لهضم أو طحن أي نوع من المركبات ـ عندما تخرج هذه المواد من مخازنها وتلتقي بأي عضو من أعضاء الجسم تفتك به فتكاً ذريعاً ـ كما يحصل في التهابات هذه الغدة. والسؤال المطروح الآن في عالم الطب وفي كل المجالات الطبية هو: لماذا لا يهضم البنكرياس نفسه أو يقضي على ذاته وينتحر ـ وكل الأدلة والبحوث تشير إلى أن العامل الوحيد الذي يقي البنكرياس (هذه القنبلة الموقوتة) من نفسه هو التماسك وصحة خلاياه التي بتوازنها وتنسيقها وارتباطها بعضها ببعض تضبط هذه المواد الفتاكة وتحوّلها إلى أغراض مفيدة. وعندما يطرأ أي خلل على هذه الخلايا، تختل هذه المعادلة وتنفجر هذه المواد وتفتك بكل ما يتصل بها.

ولبنان هكذا.

ففي هذا البلد تعددت التفسيرات والاجتهادات عن أسباب الحرب وكلها صحيحة ومنطقية. فمما لا شك فيه أن ثمة صراعاً بين الجبارين على النفوذ. ومن الثابت أيضاً أن إسرائيل تسعى لترسيخ أقدامها في منطقتنا. كما أنه من الواضح أن الصراعات العربية حلت في وطننا على الرحب والسعة. والتجاوزات الفلسطينية ليست خيالاً ولا تجنياً، والصراعات اللبنانية، سواء الطائفي منها والطبقي والاجتماعي والسياسي، حقائق ساطعة لا مجال لإنكارها.

غير أن وجود هذه العناصر والعوامل يفسر لنا مسألة دمار لبنان بقدر ما يفسر وجود الكيميائيات تآكل البنكرياس. فتآكل البنكرياس سببه المباشر تفكك الخلية، لا وجود الإفرازات الكيميائية. وهكذا لبنان فهو لا ينفرد بوجود المؤامرات ومظاهر التصدع الداخلي، فلا تخلو دولة واحدة في العالم منها، مأساتنا في لبنان هي إذاً في تفكك خليتنا. وهذه هي بالتحديد قضية لبنان، إنها قضية الإنسان فيه.

إن الإنسان هو محور القيم، فمنه تنبثق وإليه تعود وبه تقاس. فلا قيمة خارجة عن الإنسان.

ثم إن الإنسان بذاته حمّال للقيم. فله قيمتان يمتلك إحداهما بمجرد اتصافه بأنه إنسان، فهناك قيمة مستقلة عن جنسه وعمره وعقله ولونه وطبقته وعرقه، وهناك قيمة مكتسبة إضافية ترتبط بمقدار خدماته لبني الإنسان. وتحتسب خدمته على أساس النوعية لا الكمية. وعليه، فإن من يؤدي عمله بشكل جدي خير ممن يقوم بعمله بلا مبالاة وإهمال. لا فرق أكان العمل كبيراً أم صغيراً.

وفي رأينا، ينبغي التأكيد على حقوق ثلاثة للإنسان، حقوق فردية اقتصادية، وحقوق فكرية، وحقوق روحية.

فأما الحقوق الفردية الاقتصادية، فللإنسان الحق في الحياة. له الحق في أن تكون حياته ممكنة، تشتمل على إعداده المهني وتأمين سكنه وغذائه وضمانات البطالة والشيخوخة. كما أنها تشتمل على حقه في الانتقال والإقامة، وحقه في الزواج الذي يقوم على إرادة حرة بين شخصين عاقلين بالغين، ويجب أن لا تحول دون هذه الإرادة أية موانع، سواء أكانت دينية أم عرقية أم اجتماعية أم سياسية. ويتصف عقد الزواج هذا بمساواة فريقي العقد من حيث انعقاده ومفاعيله وانحلاله.

أما حقوق الإنسان الفكرية، فمنها الحق في ما يفكّر والتعبير عنه. وله الحق في العمل على وضع أفكاره موضع التطبيق عن طريق الإقناع. لكن الحريات الفكرية تقترن بمسؤوليات جدية لتحاشي التعرض لحريات الغير والانتقاص منها. فنحن لا نقر بأن يستعمل الإنسان حقه في التعبير عن فكره للمسّ بحق الآخرين في التعبير عن أفكارهم وتشويه معتقداتهم والحط من كرامتهم.

أما حقوق الإنسان الروحية، فتعني حق الإنسان في حرية الإيمان والمعتقد. فيتعين منع كل اضطهاد للإنسان بسبب إيمانه سواء عن طريق العنف الجسدي أو النفسي.

الإنسان والمجتمع

ونحن إذ نعطي الأهمية الكبرى للإنسان وحقوقه، نرى أن واجباته نحو المجتمع توازي هذه الحقوق، ولا يمكنه الاستفادة من حقوقه

وممارستها دون وعي واجباته والقيام بها. فعلى الإنسان واجب العمل وما يترتب عليه من إعداد عن طريق التعليم المهني والذهني وعدم التهرب من الأداء والإنتاج والمحافظة على البيئة والمساهمة في أعباء المجتمع المالية، والدفاع عن المجتمع. فتأدية الضرائب والرسوم وعدم تشجيع المتهربين من القيام بواجباتهم المالية أمور أساسية لقيام مجتمع متكامل. ومن دونها لا يمكن للمجتمع أن يؤمن للإنسان حقوقه. كما أن على الإنسان واجب حماية المجتمع من الداخل، وذلك بالتقيد بالقوانين والأعراف. وهي أيضاً واجبات من دونها تنتفي حقوق الإنسان. ولا يمكن أن نغفل واجب الإنسان في خدمة العلم والتطوع في الجيش عند الضرورة، وواجب القتال دفاعاً عن المجتمع.

وفيما يترتب على الإنسان بذل النشاط الفردي في خدمة المجتمع، فإن عليه بنفس المقدار أن يبذل إمكاناته الفكرية للخدمة العامة. على الإنسان أن ينمي مؤهلاته الفكرية وأن يضعها في خدمة المجتمع، وعليه واجب الإدلاء برأيه وذلك بأن ينتخب ويُنتخب، بأن يخاطب المسؤولين بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وعلى الإنسان واجب المساهمة في تغيير المجتمع نحو الأحسن وذلك عن طريق التأثير على أصحاب القرار، وعن طريق تنظيم تجمعات تهدف إلى التغيير والانتظام بها، وعن طريق النشاط ضمن المؤسسات الدستورية بقصد التطوير.

ومن أهم واجبات الإنسان الولاء للمجتمع ولاء مطلقاً غير مجزء، ولا ينحصر بفئة أو منطقة. فكل تغنٍّ بولاء ينحصر بجزء من وطننا، لا يمكن أن يكون ولاء حقيقياً. يرتب علينا ولاؤنا هذا المحافظة على وجود المجتمع ووحدته والحفاظ على مصالحه وقيمه الأساسية وإصلاحه وتطويره.

نظرة إلى الدولة

إن الدولة هي أداة العقد الاجتماعي بين الإنسان والمجتمع، ومهمتها تنفيذ هذا العقد والإشراف على حسن تطبيقه وتطويره.

وللدولة صفتان: قانونية شكلية، وشرعية جوهرية.

فهي قانونية شكلية، بمقدار التزامها بالقوانين من حيث قيامها واستمرارها وانقضاؤها.

وهي شرعية جوهرية طالما التزمت بتطبيق وتطوير العقد الاجتماعي بين طرفيه الإنسان والمجتمع، وبمقدار تأدية حق كل فريق والعمل على ألا ينال أي فريق ما يفوق حقه على حساب الفريق الآخر. ويجب ألا تكتفي الدولة بصفتها القانونية الشكلية، بل عليها أيضاً واجب التقيد بالشرعية في كل ما يصدر عنها من قوانين وقرارات. وذلك بأن تجعل حقوق الإنسان وحقوق المجتمع معياراً لشرعية إجراءاتها.

وأخيراً ينبغي السؤال: أين الإنسان في لبنان من هذه الحقوق؟ لا يمكننا أن ننكر أن اللبناني أحرز بعض الحقوق الأساسية في الحقبات الأخيرة من تاريخه. لكن هذه الحقوق بقيت نظرية، لم يتمكن من تحويلها إلى إجراء عملي، إلا بانتمائه إلى طائفة أو زعيم أو حزب أو طبقة. فالإنسان في بلادنا لم يعرف حقوقاً بصفته إنساناً، بل بانتمائه وولائه للطوائف والزعماء والأحزاب والطبقات.

لذا، ما كان لممارستنا السياسية أن تنتهي إلا حيث بدأت. انتهت باستباحة الإنسان، لأنها لم تبدأ باحترامه.

هكذا تبدو لنا القضية اللبنانية.

يتأثر لبنان، كأي بلد آخر بالعوامل الخارجية. لذا فالتفاهم بين القوى الكبرى يزيد في التفاهم بيننا. والوئام العربي يشد من لحمتنا، وتطبيق اتفاقية القاهرة يزيدنا اطمئناناً. وتأمين العدالة الاجتماعية هدف نسعى إليه وفيه حل الكثير من مشاكلنا. لكن هذه الحلول، على أهميتها، تعالج ظواهر معضلتنا دون لبابها. فجوهر القضية اللبنانية هو قضية الإنسان في لبنان وحلها يكون بمقدار ما نبين ماهيته، ونعدد حقوقه ونعيّن واجباته، ونضعها موضع التنفيذ.

٣

إلى شباب لبنان ما دون الأربعين من العمر

هذه كلمة لشباب لبنان للتذكير فقط. لقد زاد الاهتمام بكم في الآونة الأخيرة بعد أن هُمّشتم لفترة طويلة وهاجر العديد منكم طلباً للعيش الكريم. كتبتها لأذكركم ببعض ما كان عليه لبنان منذ الربع الأول من القرن الماضي مروراً باستقلال ١٩٤٣ وأخيراً الحرب القذرة التي دامت خمس عشرة سنة قضاها معظمكم أطفالاً في الملاجىء اتقاءً من القصف العشوائي أو مهجرين ومشردين مع أهلكم في كل أرجاء العالم.

فهل تعلمون أن أول رئيس لجمهورية لبنان تحت الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٧ لم يكن مارونياً؟ وهل تعلمون أن أول وزارة شكلت كانت برئاسة ماروني وأن الشيخ محمد الجسر كان رئيساً لمجلس النواب وبعدها مرشحاً جدياً لرئاسة الجمهورية؟ فأين التوزيع الطائفي والحصص المذهبية التي هي حديث الساعة اليوم؟

هذا من قبل، أما إبان الحرب القذرة من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠ فالأمور تغيرت. فهل تعلمون أن عشرات الآلاف من الأطفال الموارنة آنذاك والذين ولدوا بعد سنة ١٩٧٠ كانوا يظنون أن لبنان هو الأشرفية وكسروان والمتن الشمالي وجونيه؟

هل تعلمون أن آلاف الأطفال الشيعة في الجنوب آنذاك كانوا يظنون أن نمط العيش هو قنابل وتشريد وتهجير، وأن العيش الطبيعي هو أن يناموا يوماً في بيتهم المهدم في الجنوب ويوماً آخر في الشقق الخالية في بيروت أو صيدا وضواحيها؟

هل تعلمون أن عشرات الآلاف من أطفال السنة والذين ولدوا في بيروت سنة ١٩٧٠ وما بعد لا يعرفون الأشرفية وسن الفيل ونهري الكلب وجونيه وكسروان؟ وبعدها يلتقي هؤلاء الأطفال الذين ينتمون إلى بلد واحد ويسألون السؤال الكبير: لماذا كل هذا؟ فهل تعلمون أنه مع السنين طبع في بعض الأدمغة أغلبية هذا النموذج الشاذ للعيش وتعودوا عليه وتفاعلوا حسب مقتضياته. وهل تعلمون أن هذه الطريقة الشاذة قد تصبح جزءاً لا يتجزأ من تفكيركم إذا ما أدركتم مخاطرها وقاومتموها.

قالوا لكم وأنتم صغار إن الحرب في لبنان حرب طائفية، فأين هي الطائفية عندما تسقط الحصة الكبرى من الضحايا المسيحيين على أيدي المسيحيين، وعندما تقتل غالبية المسلمين، سنة وشيعة، على أيدي المسلمين؟

قالوا لكم إن الحرب في لبنان هي حرب بين اليمين واليسار؟ فأين معالم العقائدية في هذه الحرب عندما يقتل الفقير الفقير ويتفق الغني والفقير على قتل الفقير، وعندما تتقاتل الأحزاب اليسارية، وتفني

الأحزاب اليمينية بعضها بعضاً؟

فما هي الحرب في لبنان إذاً إن لم تكن طائفية أو عقائدية أو بين يمين ويسار. فرجائي أن تفهموا أن الحرب في لبنان كانت حرباً قذرة، بأيادٍ قذرة لأسباب قذرة. وما زلنا نعاني من ذيولها.

يحدّثونكم عن الوفاق. هل أنا وأنت وهو ضد الوفاق؟ هل المسلم السني والشيعي والمسيحي على اختلاف مذاهبه والدرزي لا يريدون الوفاق؟ كفاكم كلاماً ودروساً عن الأمن والوفاق وأيهما يأتي قبل الآخر. فكلكم تعلمون من يريد الأمن ومن لا يريده، ومن يريد الوفاق ومن لا يريده.

أكتب هذه الكلمات بحزن وغضب على ما قد يخبىء لكم المستقبل أيها الشباب الذين برهنتم للعالم بعد محاولة اغتيال الأستاذ مروان حماده واستشهاد الرئيس رفيق الحريري والدكتور باسل فليحان والعديد من المواطنين أنكم تواقون وتستحقون وطناً حراً مستقلاً، وأن همكم الوحيد جعل لبنان بلداً ديموقراطياً راقياً يتحقق فيه التسامح والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان لكل أبنائه. انتفاضة المليون في ساحة الشهداء كانت أرقى ما شاهده العالم وبعثت الأمل في المتشائمين مثلي أن لبنان قام حقاً قام.

لكن تفاؤلي لم يطل كثيراً إذ بدأت بعدها الانفجارات الواحد تلو الآخر وأعقبها اغتيال صاحب القلم الجريء الدكتور سمير قصير والأستاذ جورج حاوي. ذنبهما الوحيد كان محاولتهما جمع الأفرقاء في حوار وطني مثمر ونبذ الطائفية وصولاً إلى العلمنة.

كل هذا حقن الكآبة والخيبة في عروقي وبدأت أتساءل أهذا هو

الثمن بعد كل هذه الاغتيالات؟ ألم تكفنا هذه الكوارث درساً؟ وما زاد كل هذا سوءاً إلا ظاهرة تجييش النعرات الطائفية التي تجلّت بوقاحة ووضوح في معركة الانتخابات في حزيران، فبعد أقل من أربعة أشهر من أروع وأرقى وأنبل مظاهر الوحدة بين اللبنانيين تحت علم واحد تسللت جرثومة الطائفية البغيضة لتقسيم لبنان إلى زعامات سنية وشيعية ومسيحية ودرزية.

فأين نحن يا شباب كل لبنان من موقفكم في ١٤ آذار: مواطن واحد تحت علم واحد. أهذا حصيلة ما اتفقتم عليه في خيمكم في ساحة الشهداء وتحت سماء لبنان؟

وأخيراً سأوجه هذا السؤال إلى كل شباب لبنان على مختلف طوائفهم ومذاهبهم: هل تعملون لخلق تجمع من المواطنين أم لخلق تجمعات طائفية؟

٤

العرب والعروبة والديانات السماوية

تكونت نظرتي للعرب والعروبة والعربان منذ الصغر، ومعلمي الأول كان والدي «أبو ميشال» أو «الخواجا حنا» كما كان يدعوه بتحبب تلامذة الجامعة الأميركية وبعض زبائن مطعم شماعة آنذاك. والدي كان أميّاً قبل زواجه، يتكلم العربية والتركية بطلاقة وتعلم التركية لسكنه مدة طويلة في مدينة مرسين على شاطىء البحر الأبيض المتوسط. وبعد زواجه من الست أدما والتي كانت من أوائل النساء اللبنانيات اللواتي تخرجن من المدرسة الأميركية للبنات، علمته القراءة والكتابة والحساب وشجعته على قراءة جريدة «لسان الحال» اليومية والمجلات العربية التي كانت تصدر من مصر ومنها «الهلال» و«المقطم» و«اللطائف» المصورة.

جرت العادة أن يجمعنا الوالد مساء كل أحد على مائدته عند تناوله كأس العرق الأسبوعي مع مازته المكونة من الترمس وبزر البطيخ

والشنكليش والحمص والخضرة ومنها البندورة والخيار والفليفلة الحلوة. مساء الأحد كان اليوم الوحيد في الأسبوع الذي تجتمع فيه العائلة على طاولة الطعام، أما أيام الأسبوع فالوالد والوالدة يعملان في المطعم. يجلس الوالد على رأس الطاولة وعلى يمينه الست أدما التي تشاركه مع أولادها في المازة فقط.

وفي إحدى هذه الجلسات الأسبوعية الشيقة تطرّق الحديث إلى العرب والعروبة والديانات السماوية ومواضيع أخرى. تعريف أبو ميشال للعرب كان واضحاً ومقتضباً وصريحاً وما زال محفوراً بذهني ليومنا هذا. فالعرب، قال الوالد، هم على نوعين لا ثالث لهما: عرب العز وعرب الطز. وعهد عرب العز الذين يفخر بهم تاريخنا بدأ بالنبي محمد وأصحابه والفتح الإسلامي والخلفاء الراشدين، والأمويين والعباسيين. هم الذين نشروا العلم والحضارة في أنحاء العالم، ولولا الفلاسفة والعلماء والأطباء والفلكيون العرب لما كنا الآن على ما نحن عليه من تقدم وحضارة. ولسوء حظنا لم يدم عصر عرب العز طويلاً، فبعد أقل من خمسمائة سنة من العظمة والحضارة والقوة أصيب العرب بأمراض لا نزال نعاني من ذيولها حتى اليوم. أمراض أوصلتنا إلى الشرذمة والتفرقة والحروب الطائفية والمذهبية والفساد والجهل والتخلف إلى أن أكمل على هذه الحالة البائسة الاحتلال العثماني للأمة العربية من محيطها إلى خليجها.

وها أنتم الآن يا أولادي في عصر عرب الطز. عرب همّ قادتهم الوحيد المصلحة الشخصية متناسين تاريخهم العظيم الذي نشر الانفتاح والتسامح والعيش المشترك بين الشعوب. فاحتلت الطائفية والمذهبية أذهانهم مما زرع بذور التفرقة عند الناس، وتغيّر مفهوم العرب والعروبة من مجتمع من المواطنين يجمعهم تاريخ واحد ولغة

واحدة إلى مجتمع من المناصب تتقاتل باسم الدين، والدين بريء منها.

وبالحديث عن الدين والديانات فالوالد كان مسيحياً غير ملتزم ولا أذكر أنه ذهب إلى الكنيسة يوماً إلا في مناسبة زفاف أو مأتم، لكنه كان يعتز بأرثوذكسيته ويصرّ عليها: الشكر لله صباحاً والحمد لله مساءً كانت صلاته اليومية. كلمتان ما زلت أتبعهما لهذا اليوم. ومن أقواله المأثورة عن الأرثوذكسية ـ أن الأرثوذكسيين في لبنان والعالم العربي هم من سلالة الغساسنة في الجزيرة العربية، فهم عرب قبل الإسلام ومسيحيون قبل الموارنة. فلا يزايدن أحد بعروبته أو مسيحيته.

هذا باختصار هو الجو الذي تربينا عليه منذ الصغر، ولم يقتصر على عائلتنا فقط بل شمل كل هذه البقعة الصغيرة من الوطن التي تدعى رأس بيروت.

لم يتغير مفهومي عن العرب والعروبة كثيراً بعد مرور أكثر من نصف قرن على وفاة الوالد، مع بعض التعديلات الطفيفة والتي نتجت من اكتشاف النفط وامتلاء جيوب العرب بالمال. فبعدما كان العرب على نوعين حسب تعريف الخواجا حنا، أصبحوا الآن على ثلاثة أنواع: عرب الهز وعرب الرز وعرب الطز، آملين أن يرجع العرب يوماً إلى أيام عرب العز.

وعلى مرّ السنين تطورت ثقافتي السياسية وانتقلت من أقوال والدي إلى ما سمعته من أهلنا في لبنان. فليس من المبالغة إذا قلت إن اللبناني هو أكثر الناس اهتماماً بالشؤون السياسية المحلية منها والإقليمية والدولية. من أحمد البويجي إلى بائع الصحف

والخضرجي والحلاق، ولن أنسى أبرزهم وأوسعهم اطّلاعاً ـ «أنور الجرسون» الطيب في مطعم فيصل الشهير مقابل الجامعة الأميركية. فإضافة إلى خدمة الزبائن يتدخل أنور ويناقش بحدة وجدية في المواضيع التي نتداولها على الطاولة، ويصبح طرفاً مؤيداً أو معارضاً للأفكار المطروحة. وحاول إن استطعت أن تسكت سائق التاكسي والذي يذكرك بابتسامة بمعلوماته الوثيقة من مصادر مسؤولة عن أصابع الدول التي لعبت بلبنان بدءاً بإسرائيل ووصولاً إلى كل الدول الأوروبية والولايات المتحدة. وبالنسبة لي فمنذ عشرين سنة تقريباً تحوّل مصدر معلوماتي عن الأحداث المحلية والإقليمية والدولية من وسائل المرئي والمكتوب والمسموع إلى شاب يعمل في البناية التي أسكنها. يزودني يومياً صباحاً ومساءً بآخر الأخبار، عند ذهابي ورجوعي من العيادة. وعلى سبيل المثال، بعد الاحتلال العراقي الغاشم والغشيم لدولة الكويت سنة ١٩٩٠ أكّد لي هذا الشاب ببراءة وعفوية أن الولايات المتحدة حكومة وشعباً لن تقف مكتوفة اليد أمام هذا الاعتداء السافر نظراً للعلاقة الوطيدة والصداقة الحميمة بين الشعبين الأميركي والكويتي، ونظرتهما المتطابقة إلى الأمور الثقافية والتربوية والاجتماعية، فلا بد أن تقوم أميركا وحلفاؤها بتحرير الكويت. واستطرد هذا الشاب نقلاً عن الناطق الرسمي باسم وزارة الدفاع الأميركية آنذاك، أن المعركة ستكون قاسية وخطرة نظراً لأن الجيش العراقي يعدّ رابع أقوى جيش في العالم، لكن النخوة الأميركية لن تردعها عن القيام بهذه المهمة الشاقة. وبظرف يومين انهار رابع أقوى جيش في العالم وقتل الآلاف منه إضافة إلى آلاف المدنيين، ودمّرت البنية التحتية للعراق. أما خسائر الولايات المتحدة وحلفائها فاقتصرت على أقل من عشرين إصابة معظمها بحوادث سير والباقي بغارات خاطئة من طائراتهم على الجيش الأميركي.

وأذكر أيضاً إبّان حربنا في لبنان تصريحاته اليومية بما فيها من «قنص على كل المحاور» أو «هدوء حذر»، أو «وقف إطلاق النار في غضون أربع وعشرين ساعة». ولن أنسى نشراته الجوية اليومية من رياح شمالية بسرعة ستين كلم وأمطار ابتداءً من ثمانمائة متر.

فليفهم القاصي والداني من اللبنانيين الذين لم تتح لهم الفرصة لأن يعيشوا في لبنان ما يفوتهم من معلومات قيمة وتحاليل عميقة، وليتفهموا الأسباب التي تجعلني مدمناً على محبة لبنان.

٥

التعامل مع التخلف

هذا الفصل يحتوي على آرائي بالقضايا المحلية والإقليمية والدولية وأتساءل إن كان أحدكم يهمه رأي طبيب في هذه القضايا انصبّت اهتماماته طوال نصف قرن على الجهاز الهضمي ومحتوياته من أعلاه إلى أسفله. لكن جرثومة السياسة الموجودة في دمي كما في دم كل لبناني ولبنانية لا بدّ من إطلاق سراحها.

سأبدأ بالأكاذيب والخيبات التي اكتشفتها وعشت واقعها عبر السنين وما زال بعضنا يصدقها. أولها نظرة العالم الغربي والعالم العربي إلى لبنان. فكلنا قرأ وسمع التصاريح عن محبة جميع الدول لهذا الوطن الحبيب وأن العالم بأسره ملتزم بسيادته واستقراره وسلامة أراضيه. كلام جميل وتصريحات مطمئنة تنسيك الواقع. فعلى سبيل المثال، منذ أن أحكمت سورية قبضتها على لبنان سنة ١٩٩٠ وقضت على معالم استقلاله لم نسمع بأي تنديد من الدول

الأوروبية والولايات المتحدة الأميركية واكتفى الجميع بغض النظر أو الإهمال المتعمد، وبعد انضمام سورية الصوري ضد الرئيس العراقي صدام حسين أهدى الرئيس بوش الأب بوليصة تأمين الحراسة على لبنان إلى الرئيس الأسد الأب وسورية. ومن سخريات الدهر أنه بعد خمس عشرة سنة على اتفاق بوش الأب على منح سورية الضوء الأخضر في لبنان نرى الآن ابنه يهدد الرئيس الأسد الشاب بكل أنواع الضغوط السياسية والاقتصادية مع تلميحات بعقوبة أخرى. كل هذا يقودني للقول إن البعض من اللبنانيين الذين يظنون أن خشبة الخلاص للبنان تأتي من العم سام أو من أمنا الحنون فرنسا عليهم أن يراجعوا التاريخ ويتذكروا أن كل الكلام المعسول ووعودهم بالسمن والعسل «مش كرمال سواد عيونك يا لبنان». هذا بالنسبة للولايات المتحدة وفرنسا وسائر الدول الغربية، أما في ما يتعلق بأشقائنا العرب الذين تربطنا بهم روابط وثيقة، فلا أذكر أي محاولة جدية لنصرتنا سوى جرعات متكررة من الدولارات لتهدئة خاطرنا. ففي سنة ١٩٧٠ عندما كانت القضية الفلسطينية الشغل الشاغل للعرب نجحوا بإرغام لبنان على دفع الثمن وساهموا في خلق دولة فلسطينية في لبنان. هذه هي حال الدول العربية تجاه لبنان وفيما بينها. ضعف وشلل وجبن في القرار، فلا حلول عربية لقضية الكويت والعراق مثلاً، وعدم الاكتراث بلبنان هو جزء من هذا المنطق المشلول.

وسؤالي الكبير: ما هو سبب هذا الشلل العربي تجاه مصالحه وما الذي ينقصه ليسترجع قدرته وقراره الحر؟ كفى القول أن إسرائيل هو العدو الأول للعالم العربي ولبنان خاصة، لأن للبنان والعالم العربي عدواً أدهى وأخبث هو التخلف. سمعنا وقرأنا الكثير عن قضية التعامل مع إسرائيل وأنا لست بصدد المزايدة في هذا

الموضوع. كفى القول أن إسرائيل هي العدو الأول للعالم العربي وأي نوع مع هذا التعامل هو خيانة عظمى. لكني لم أسمع ولم أقرأ يوماً تصريحات للقيادات العربية، والتي لا تبخل عادة بتصريحاتها، أن التعامل مع التخلف هو خيانة أيضاً. فالتخلف عدو أشد وأدهى من العدو الصهيوني. إسرائيل دولة ظاهرة لها بداية ولها نهاية، لها نقاط قوة نستطيع معرفتها وبالتالي تفاديها ولها نقاط ضعف كلنا نعرفها ونستطيع ضربها. أما التخلف فهو عدو خفي لا حدود له ولا قاعدة لمهاجمته، يفتك بطريقة متواصلة وبدون ذرائع ويضرب كل المؤسسات الرسمية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية بلا هوادة. فالتعامل مع التخلف هو كالتعامل مع أهم أعداء لبنان والعالم العربي. والسكوت على الجرائم هو تعامل مع التخلف والفلتان الأمني، وغض النظر عن الذين يقومون به هو تعامل مع التخلف، والعيش مع القذارة والأوساخ وعدم احترام البيئة والقبول بهذه الحالة هو تعامل مع التخلف. ولعل أسوأ مظاهر التخلف والتي تتجلى الآن بوضوح هو التزمت الطائفي والمذهبي بين جميع الطوائف بلا استثناء، ويؤلمني جداً أن هذا المرض الخبيث أصاب خيرة الشباب الذين كنت آمل أن يقوم مستقبل لبنان عليهم.

فكما نحرّم التعامل مع العدو الإسرائيلي، وهذا طلب أساسي، علينا أيضاً أن نصدر قراراً بعدم التعامل مع التخلف، فلن تكفي التصريحات والندوات عن محاربة التخلف بل المطلوب جهود ميدانية عملية بدءاً بالتخلف الذريع لأصحاب القرار والنفوذ وصولاً إلى كل الشعب اللبناني.

ومصداقاً لهذه المقولات، كلنا نذكر التصريحات التي صدرت إبان الأزمة الحكومية التي انسحب فيها الوزراء الشيعة من وزارة الأستاذ

فؤاد السنيورة. فسمعنا من جهة تصاريح جماعة ٨ آذار والتي أدهشتنا بهدوئها ورصانتها وعمق تحليلاتها فاستبشرنا خيراً لجهة الأزمة. ولم تمض أيّام قليلة حتى سمعنا وجهة نظر ١٤ آذار والتي زادت قناعتنا بحرصها على تناسي الأحقاد والإيمان بعروبة لبنان وسيادته وسلامة أراضيه. فأين المشكلة إذاً ولماذا التشنج والشعب بأسره وبكل طوائفه ومذاهبه واتجاهاته العقائدية يرزح تحت شبح الخوف والقلق من انفجارات أمنية وضائقة اقتصادية ومعيشية؟

مشكلة وأسئلة لا جواب لها عندي إلا أنها ذكرتني بما قاله أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري «أبو العلاء المعري» الفيلسوف الكبير والشاعر الشهير في القرن العاشر الميلادي عندما زار اللاذقية التي لا تبعد كثيراً عن بلدته معرة النعمان في سورية، قال أبو العلاء:

في اللاذقية ضجّة بين أحمد والمسيح

فهذا بناقوس يدقّ وذا بمئذنة يصيح

كل يعظّم دينه يا ليت شعري ما الصّحيح

فهمت آنذاك من قول الشّاعر الضّرير أنّ مشكلة لبنان تمتد لأكثر من ألف سنة، وأن كل التصريحات عن الوصاية الخارجية من هنا وهناك وترسيم الحدود من الشمال إلى الجنوب وقضية المزارع ذرائع لتغطية المشكلة الأساس. فإن لم نملك فراسة المعري وصراحته وصدقه في تشخيص مرضنا ووصف العلاج فكل المحاولات الأخرى تكون تسكينية ومؤقتة كما هي الحال الآن.

٦

الخيبة الكبرى

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهنّد

(زهير بن أبي سلمى)

في الحياة اليومية خيبات أمل كثيرة ومتعددة الأنواع. ففي الصغر وأيام الشباب هناك خيبات غرامية، وفي العلاقات الإنسانية خيبات أمل من أشخاص تعتبرهم أقرب الناس لتكتشف أن الصداقة لم تكن سوى مدخل إلى مصالح شخصية.

ما الذي دفعني إلى كتابة هذا الفصل، قد يسأل القارىء؟

في مساء يومٍ بارد من شهر آذار ٢٠٠٤ قررنا الخروج للعشاء مع صديق لي وزوجته إلى مطعم لبناني في رأس بيروت شهير بأطباقه المختلفة من اللحوم. مطعم الإسطنبولي ليس معروفاً عند السياح

وأكثر المترددين عليه من أهل المنطقة. وبعد قليل، دخل زوجان، من الأجانب على ما يبدو، وجلسا عند الطاولة بجانبنا. ولم يمض وقت طويل حتى بدأنا نسمع اللهجة الأميركية. وكانت هناك صعوبة اتصال واضحة بين «الجرسون» والزوجين. ولدى سماعنا هذا تطوعنا للترجمة واقترحنا اختيار الأطباق، وفي نهاية الوجبة دعونا الزوجين إلى شرب القهوة معنا.

بعد المقدمات، اكتشفنا أن الزوجين الأكبر سناً هما والدا الشاب الذي جاء إلى لبنان مع زوجته ليعلّم الإنكليزية في إحدى المدارس الثانوية في بيروت. ولم تمض بضع دقائق حتى «انزلقت» المحادثة إلى القضية الرئيسية آنذاك ـ العراق. كان فهم زوارنا للعرب والمسلمين غريباً عن أي شيء كنا نعرفه. وقد هنّأنا الزوجان أولاً لأننا لبنانيون لا عرب، وفوجئوا حين أخبرناهم بأننا اللبنانيين عرب. «لا بد أنكم عرب مسيحيون إذاً» ـ استنتج الرجل الأكبر سناً. «فانطباعنا أن كل العرب عندهم لحى وشوارب، وأنتما حليقا الوجه وزوجتاكما غير محجبتين ويلبسان مثل الأميركيين». أخبرناه أنه على صواب بنسبة خمسين في المائة، فأحدنا مسيحي مع زوجة مسيحية والثاني مسلم مع زوجة مسيحية. وأتت لحظة القلق عندما أعطيناهم أسماءنا، لأن أحدنا يحمل الاسم السيئ السمعة، أسامة. وتابعنا أن أسامة (الذي يعني الأسد) اسم شائع وأن كلاً من المسيحيين والمسلمين يمكن أن يحملوا هذا الاسم. وأوضحنا لهم أن صورة العرب في الغرب مرّت بالعديد من المراحل، وهي تربط عادة بقطاع صغير واحد من الشعب العربي، هم البدو، الذين يلبسون الكوفية والعقال. وعلى مرّ السنين وبشكل خاص منذ أوائل القرن العشرين عندما أصبح العالم العربي أكثر «جاذبية» للغرب بسبب اكتشاف النفط، بدأت صورة العرب عند الغرب تتغيّر بفضل الجهود الدائمة

والمتعمدة لأجهزة الإعلام الأميركية والغربية لتلويث صورتهم. وكانت الصناعة السينمائية في هوليوود ذات دور كبير وفعّال في نشر هذه الصورة القبيحة للعرب. وتظهر السينما الغربية الكاريكاتور الشعبي في الأفلام الأميركية، العربيّ رجلاً ملتحياً يفتح باب سيارته الكاديلاك المذهبة ويرمي المال إلى مجموعة من البنات ذوات الفساتين القصيرة. ويُصور العربي أيضاً رجلاً خطراً وشريراً يرتدي الجلابية همه الرئيسي اختطاف الطائرات وتفجير المباني العامة. وقد أصبحت هذه الصورة المكرّرة تقريباً للعربي محصنة في بعض عقول الناس بحيث إنهم الآن غير قادرين على التمييز بين أقلية صغيرة جداً من الناس التي قد تلائم هذه الصورة والأصول الإثنية التي يأتون منها. لذلك بدأ الجمهور السائد في الغرب حقاً بالاعتقاد بأنه إذا كان بعض العرب متعصبين قاتلين فكل العرب متعصبون. وأخيراً انتهى النقاش إلى أن العرب كسائر البشر فيهم الإنسان الجيد والإنسان السيئ.

هذه الجلسة المثيرة، بالإضافة إلى الفكرة الخاطئة والسائدة عند الأميركيين عن العرب، دفعتني إلى كتابة رسالة بالإنكليزية إلى الإنسان الأميركي العادي توضح من هم العرب حقاً. ونشرت مقالتي في جريدة Christian Science Monitor في آذار ٢٠٠٤ وأثارت اهتماماً إذ وصلني من بعدها ست وثلاثون رسالة بالبريد الإلكتروني من أميركيين لا أعرفهم يوافقون على ما كتبته.

قلت في تلك الرسالة «أنا طبيب لبناني في السبعينيات من العمر، تربيت على المبادىء الرفيعة التي علمتني إياها الجامعة الأميركية في بيروت. تاريخي طويل ومثمر مع المراكز الأكاديمية الأميركية، فدراستي من المرحلة الابتدائية إلى الجامعية كانت في مؤسسات

أميركية وقد ساعدت على صياغة شخصيتي وبلورتها. وعززت سنين تخصصي في كلية هارفرد الطبية اعتقادي في المبادىء الأميركية المتعلقة بالتواضع، والإنصاف، والشجاعة الفكرية وأهمية حقوق الإنسان. وطوال عملي زاولت هذه المبادىء ودفعت أصدقائي وعائلتي وزملائي وطلابي إلى اتباع المبادىء التي تعلمتها في الجامعات الأميركية، إلى حد اعتبرت يوماً أني أميركي بقدر ما أنا لبناني.

والآن أراقب بخيبة وألم فيما تلك المبادىء التي ما زالت جزءاً مني تهدم وتداس بشكل قاس من على يد الإدارة الحالية في الولايات المتحدة الأميركية، وأشاهد بغضب تلك الإدارة نفسها بالتعاون مع حليفتها إسرائيل تساهم بزعزعة كيان العراق والأراضي الفلسطينية المحتلة. أستمع يومياً كيف يحرف أصحاب القرار الأميركيون معنى الديموقراطية من «صوت الناس» إلى «صوت الأقوياء». فأين تلك الدولة الكبرى التي ساهمت في إلغاء حائط برلين وهي الآن تشاهد بصمت إقامة حائط حول الشعب الفلسطيني. ما زلت أذكر تحية الولايات المتحدة لنلسون منديلا حين شجب التفرقة العنصرية فيما الآن كل يوم تكوم المزيد من الحجارة لاحتواء مجموعة كاملة من الناس كما لو أنهم في حديقة حيوانات.

كل العالم العربي بغض النظر عن المعتقدات الدينية أو السياسية راقب في رعب وشارككم حزنكم في ذلك اليوم الحاسم في أيلول ٢٠٠١. المسلمون والمسيحيون واليهود في منطقتنا من العالم أصابهم ذلك الفعل المروع وكلنا أدنّاه. فكونه منفذاً من فعل مجموعة صغيرة من المتطرفين المسلمين لم يقلل من فظاعته، لكن من خلال استعمال هذا الرعب المرتكب من جانب هؤلاء المتطرفين، عممت الإدارة الأميركية الحالية غضبها على كل مسلمي

العالم والعرب. هل لي أن أذكّر الشعب الأميركي بأنه لا المسلمون ولا العرب هم الذين أسقطوا القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناغازاكي واللتين قتلتا ثمانين ألف شخص، ولا المسلمون ولا العرب كانوا مسؤولين عن المحرقة اليهودية، أو كانوا في أي حال مسؤولين عن موت الملايين أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية. رجاء افهموا لماذا يرى فيكم المسلمون والمسيحيون الحليف والحامي الوحيد لإسرائيل ولماذا يصنفكم العراقيون كمحتلين لا محررين. لقد هاجمت الولايات المتحدة العراق بذريعة أن صدام حسين يملك أسلحة الدمار الشامل، وراقب العالم تكذيب هذا الادعاء مراراً وتكراراً، ولكن الولايات المتحدة تسكت عن إسرائيل وهي تعرف تماماً أن هذه البلاد تملك أسلحة الدمار الشامل غير المحدودة تحت تصرفها ـ رجاء افهموا لماذا هذه الإدارة تجعل بليون مسلم يرون الولايات المتحدة ظالمة.

كل هذا جعلني أفكر أين أصبح الأميركيون؟ أين الأميركيون الذين عرفناهم؟ أين أنتم مؤسسي الجامعة الأميركية في بيروت أكبر صرح علمي في الشرق الأوسط؟ أين أنت أيها القس الدكتور دانيال بلس أول رئيس للجامعة والذي قلت بمناسبة وضع الحجر الأساس لبناية كولدج هول في ٧ ديسمبر/كانون الأول ١٨٧١ «هذه الكلية هي لكل الناس بكل ظروفهم وطبقاتهم وبغض النظر عن اللون أو الجنسية أو العرق أو الدين. فأي إنسان أبيض أو أسود أو أصفر، مسيحياً كان أو يهودياً أو مسلماً أو وثنياً، يمكنه أن يدخل ويتمتع بكل ميزات هذه المؤسسة لثلاث أو أربع أو ثماني سنوات ويخرج مؤمناً بإله واحد أو بآلهة كثيرة أو بلا إله ولكن سيكون من المستحيل أن يستمر معنا لمدة طويلة من دون أن يعرف ما نؤمن بأنه الحقيقة والأسباب التي تدفعنا إلى ذلك».

أين أنت أيها الحكيم الدكتور كورنيليوس فانديك أحد مؤسسي كلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت والذي بدأ بترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغة العربية، وليتأكد من نقاوة لغته طلب مساعدة الشيخ يوسف الأسير الأزهري من سكان صيدا والمتخرج من جامعة الأزهر في القاهرة ليصحح ترجمته.

أنهي هذه الرسالة بطلب واحد: لا تجعلوني وكثيرين مثلي ـ نحن الذين تعلّمنا وتربينا على أساتذتنا الأميركيين ـ وفهمنا المعنى الحقيقي للديموقراطية، أن نصنف أولئك الناس أنفسهم الآن في معسكر العدو. يؤلمني هذا كثيراً أنا العربي المسيحي ـ وخصوصاً بعد أن اعتنقت المبادىء التي علمتوني ـ أن أرى الآن أصحاب الاعتقادات نفسها التي تربيت عليها ينغمسون في وحل العراق والأراضي الفلسطينية المحتلة».

٧

المقاومة والإرهاب

بعد عملية ١١ أيلول ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن، كثر الحديث والاجتهاد والتحليلات المتعلقة بمعنى الإرهاب وتضاربت الآراء في منفّذي هذه العمليات فصنّفهم بعضها إرهابيين، مما جعلني أعير هذه الظاهرة اهتماماً أكبر توصلاً إلى مفهوم أوضح لها.

الانتحاريون، الانتحاريون المجاهدون، المستشهدون في سبيل الوطن، أوصاف مختلفة لأشخاص مستعدين للموت عمداً في سبيل قتل العدو. هذه الظاهرة هي من قدَم التاريخ. والمثل الساطع للانتحاريين ظهر إبان الحرب العالمية الثانية عندما وجّه الطيارون اليابانيون طائراتهم لتفجير بوارج العدو. وعملية كاميكازي كما كانت تدعى تختلف عن غيرها من العمليّات المشابهة بأنها موجّهة ضد أهداف عسكرية فقط.

لم يشهد العالم عملية انتحارية مماثلة حتى سنة ١٩٨٣ عندما أقدم عضو في الجهاد الإسلامي على تفجير شاحنة محشوة بالمتفجرات في السفارة الأميركية في بيروت أدى إلى مقتل ٦٣ شخصاً. وفي تشرين الأول من تلك السنة فجّر انتحاري آخر شاحنة في مقر الجيش الأميركي في بيروت موقعاً ٢٤١ قتيلاً بين الجنود.

ومن أوائل الأعمال الانتحارية ضد العدو الصهيوني قيام فتاة لبنانية تدعى لولا عبود بتفجير نفسها أمام الجنود الإسرائيليين في لبنان سنة ١٩٨٥. ومنذ ذلك الوقت شملت هذه الوسيلة العديد من المنظمات في العالم ومن بينها حماس وجماعة التاميل في سيريلانكا وأخيراً المئات من الانتحاريين في العراق.

العوامل التي تهيىء للمناخ المؤاتي للقيام بهذا العمل هي موضوع يشترك في دراسته ومناقشته اختصاصيون في علم النفس والاجتماع إضافة إلى اختصاصيين في الإرهاب. وحتى يومنا هذا ما من نظرية تفسر على نحو كافٍ الحافز أو الباعث على القيام بهذا العمل. ومن الاقتراحات التي راجت لبساطتها وتسلسلها المنطقي نظرية الفاجعة أو النكبة أو الإخفاق التام (Catastrophe Theory). فمنذ عشرين سنة تقريباً خضعت هذه النظرية لبحث دقيق مستندة إلى نماذج حسابية. وبكل بساطة، تفترض هذه النظرية أن هناك حدّاً للاستجابة أو القدرة على تحمل عمل ما مهما كان نوعه. وعلى سبيل المثل فإن أردت أن تمدد أو تمط شريطاً من المطّاط، فكلما مددته تخزّن طاقة أكبر فيه إلى أن تصل إلى مرحلة من التمدد ينقطع فيها الشريط وتخسر كل الطاقة الموجودة فيه، ومن الصعب التنبؤ أو معرفة المرحلة أو المحطة التي من بعدها ينقطع شريط المطاط.

هذه النظرية تنطبق أيضاً على العلوم البيولوجية ودراسة سلوك الحيوان. فإن أردت أن تهدد كلباً أو هرّة تستطيع غالباً تخويفهما، لكن كلما زدت التهديد تصل إلى أحد الاحتمالين: إما أن يهرب الحيوان أو يهاجمك ويعضّك. وهنا أيضاً من الصعب معرفة أي حيوان يهرب وأي حيوان يعض.

والسلوك الحيواني ينطبق على الإنسان أيضاً. فإذا أهنت أو عذّبت أو أفقرت إنساناً فلا تعجب إذا قام بردة فعل طائشة أو إجرامية. ورد الفعل هذا عند هؤلاء الأشخاص ليس وراثياً أو له علاقة بالتركيبة الجينية كما يظن البعض.

ومن أقدم الأمثال ما قام به شمشون الذي تصح تسميته بأول الانتحاريين. فكما ورد في الكتاب المقدس نجد أن شمشون انتحر مع قتله بضعة آلاف من الناس في بيت العبادة. والكتاب المقدس يقول لنا أيضاً لماذا قام شمشون بهذا العمل، فبعد أن أسر وأهين وسملت عيناه، هدم الهيكل على من فيه وانتحر. ويجدر القول أنه في تلك الأيام لم يكن بنو إسرائيل يؤمنون بوجود جنة أو جهنم فعمل شمشون هذا لم يكن هدفه الوصول إلى النعيم وجنة عدن خلافاً لما نجده الآن لدى الانتحاريين المسلمين الذين يأملون بلوغ الجنة بعد استشهادهم.

وهناك نظريات أخرى لتفسير ظاهرة الانتحار أو الاستشهاد. فالبعض يظن أن غالبية الانتحاريين هم من الطبقات الفقيرة وذات المستوى التعليمي المنخفض، لكن الدراسات التي أجراها علماء النفس وعلماء الجنس البشري (Anthropologists) لم تجد أي برهان إحصائي على هذه المقولة، إضافة إلى دراسات أخرى لم تجد

أي علاقة مباشرة بين الهجمات الانتحارية والتطرف الديني، فمن أهم مرتكبي هذه الأعمال أعضاء حركة التاميل السريلانكية، وهي حركة ماركسية لينينية أعضاؤها لا يعيرون الدين اهتماماً. لكن هذا لا ينطبق على الحركات الأخرى مثل القاعدة وحماس وغيرهما من الحركات المتشددة دينياً حيث يُستعمل التثقيف الديني حافزاً للقيام بتلك العمليات، فالصعود إلى الجنة كما الاستشهاد في شهر رمضان المبارك يزيد ما يقومون به جلالاً ونبلاً ووقاراً.

وما نشهده في العراق من عمليات شبه يومية يؤكد لنا سهولة انتقال عدوى هذه الظاهرة. ففي العراق وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة تهدف هذه الأعمال الانتحارية إلى إرغام المحتل على الانسحاب من الأراضي التي اغتصبها ــ ففي العراق يعتبر الوجود العسكري الأميركي احتلالاً كما هي الحال في فلسطين.

وهناك لغط حول التمييز بين الإرهابي والمناضل الاستشهادي، وهذا اللغط يعتمد على جهة السائل والمناسبة التي حدثت فيها العملية وتوقيتها. فعند الفرنسيين الذين كانوا أول من استعمل تعبير «الإرهاب» إبان الثورة الفرنسية كان لهذا التعبير مدلول إيجابي. فالإرهاب هو تاكتيك حربي والاستشهاد هو حافزه. فتعريف أي جماعة بأنها إرهابية أو مقاومة يعتمد على ما إذا كانت الوسيلة التي تعتمد تبرر الغاية التي تسعى إلى تحقيقها.

والجدير بالذكر أن المقاومة الفلسطينية في الخمسينيات من القرن الماضي كانت دنيوية أو غير دينية، وكانت تمثل خطراً على إسرائيل وعدوة للولايات المتحدة. فالدكتور جورج حبش الطبيب المسيحي والدكتور وديع حداد الطبيب المسيحي أيضاً كانا من ألدّ أعداء

إسرائيل والولايات المتحدة، وهذان البلدان آنذاك رأيا أن الإسلام دين هامد وغير فعّال قتالياً، مما جعلهما يؤيدان الحركات التقليدية الإسلامية التي ساهمت في ما بعد في خلق حماس والجهاد الإسلامي إضافة إلى أسامة بن لادن والقاعدة والتي أصبحت كلها أقوى من الحركات الدنيوية التي سبقتها. فانقلب السحر على الساحر.

وفي إسرائيل والولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية يوصف الانتحاريون الفلسطينيون وانتحاريو العراق بالإرهابيين، بينما ينظر العرب والعالم الإسلامي إلى أفعالهم بأنها جزء شرعي من المقاومة لتحرير الأرض المغتصبة. فأي إنسان يمكن أن يُعدّ إرهابياً في وقت من الأوقات، ثم بعمل مماثل يصبح مقاوماً هدفه تحرير الأرض في وقت آخر. والمثل الأسطع على هذه المعادلة هو أسامة بن لادن الذي منحه الأميركيون لقب المقاوم عندما قاوم الاحتلال السوفياتي لأفغانستان وأصبح الآن الإرهابي الأول في العالم.

وفي الآونة الأخيرة وبجهد وسائل الإعلام الأميركية والإسرائيلية، أصبح تعبير الإرهاب يقترن بالإسلام فيما والإسلام بريء من هذا الاعتقاد الخاطىء. فإذا قام مسلم بعملية، تلصق به كلمة إرهابي، أما إذا قام شخص غير مسلم بتفجير دار عبادة أو منطقة سكنية يقتل فيها المئات كما حدث عندما فجّر الأميركي تيموثي فاي بناية في ولاية أكُلاهوما قتل فيها المئات.. فلا تذكر وسائل الإعلام أبداً أنه إرهابي مسيحي.

سبحان الذي يغيّر ولا يتغير.

٨

عم تضحكوا على مين

في اللغة اللبنانية الدارجة ترد لفظة لا نرى لها مرادفاً في اللغات الأخرى، ولا أدري إن كان لها جذر في اللغة العربية الفصحى. هذه اللفظة هي «التكييع»، وهي مصدر فعل «كيع» «يكيع». والمفهوم من هذه اللفظة معنى التعجيز، أو وضع العراقيل، أو سد الأبواب في وجه أي حلّ.

وربما كان من المصادفات أن تكون هذه اللفظة أكثر رواجاً في لبنان من غيره في البلدان، وأن يكون المرادف الحقيقي لها غير موجود في اللغات الأخرى. لكن، بما أن اللغة هي وسيلة التعبير عن حاجات البشر، فيبدو من المعقول أن هذه اللفظة نشأت وراجت في لبنان نتيجة حاجة ماسة إليها.

فإذا نظرنا إلى القضية اللبنانية اليوم وهي غارقة في «إسهال» من

الحوار، فإننا نجد أن «التكييع» هو القاسم المشترك لتنفيس هذه المبادرات.

فمن الناحية اللبنانية ــ اللبنانية الصرفة نجد أن كل فريق من الأفرقاء يطرح شروطاً «تكييعية» على الآخر باستقالة رئيس الجمهورية فوراً ونزع سلاح المقاومة وانتشار الجيش اللبناني على الحدود مع إسرائيل.

و«التكييع» على الصعيد اللبناني ــ الفلسطيني، سائر على قدم وساق. ونظرة خاطفة إلى ما يدور من حوار بين المقاومة الفلسطينية والسلطة الشرعية كافية لإظهار ذلك. فالشروط التي تطرح، والمحاذير التي يشار إليها، واللعب على مفاهيم الاتفاقيات القديمة، كلها تدل بوضوح على أن التعجيز هو سيد هذا الحوار، وأن الوصول إلى اتفاق من خلاله هو من سابع المستحيلات.

أما بالنسبة إلى الدول العربية فتستطيع أن تقول بأن علاقتها مع لبنان هي مزيج من «التكييع» والمزايدات. فتارة تتهم هذه الدول اللبنانيين بأنهم منقسمون على أنفسهم ولا خير فيهم ولا بد أن يتفقوا فيما بينهم قبل أن يأملوا بأي مبادرة وفاقية تأتي من جهتها. وطوراً، تنفخ هذه الدول في نار الطائفية في لبنان، وتتهم اللبنانيين بالعمالة لإسرائيل على الرغم من أن لبنان هو الوحيد منذ عدة سنوات الذي يفتح جبهته ضد العدو الصهيوني ويذوق من اعتداءاته المتكررة الأمرّين.

إضافة إلى ذلك، تطالب الأنظمة العربية اللبنانيين بتفهم القضية الفلسطينية، متجاهلة أن اللبنانيين هم الذين تفهموها واعتنقوها أكثر من أي دولة عربية أخرى. هذا فيما تضع هذه الأنظمة العراقيل أمام

دخول الفلسطينيين إلى أراضيها، وتمنعهم من ممارسة أي عمل سياسي أو عسكري فيها أو انطلاقاً منها.

والمضحك المبكي أن التصريحات الصادرة عن القيادات في الدول العربية جميعها تشدد على سيادة لبنان ووحدة أرضه وشعبه، فيما هذه القيادات، من خلال الممارسة الفعلية، أبعد ما تكون عن العمل على تحقيق ذلك، إن في جامعة العربية باتخاذ القرار الحاسم وتنفيذه، أو في الأمم المتحدة بالضغط على العالم الغربي لكي يحافظ بدوره على سيادة لبنان ووحدته.

إننا لا نعجب أن تعتمد إسرائيل أسلوب «التكييع»، فهي العدو، والعدو يجنّد كل طاقاته لخدمة مصالحه، ومصالحه تنطبق مع تعجيز لبنان وفشل حلّ هذه «الحزورة».

فلبنان، بعد السنين الطويلة، أصبح غير ذي شأن كبلد في العالم، وكل أصدقائه وأشقائه وأعدائه يلهونه بـ «حزورة» لا أمل بحلها، بينما يتمتعون بتحسين أوضاعهم والحفاظ على مصالحهم وأمنهم.

وأخيراً كلمة إلى القيادات اللبنانية جميعاً من داخل طاولة الحوار وخارجها: نقول لهم فيها زهقنا وقرفنا. زهقنا من الابتسامات، زهقنا من المصالحات، زهقنا من زعاماتكم والتي مصدرها الأول هو انتماؤكم الطائفي والمذهبي. زهقنا من تصريحاتكم التي لا تخدم إلّا طموحاتكم فلا تؤمن الرغيف للفقير، ولا تمنع الهجرة عن الشباب ولا ترسّخ الأمن والاستقرار. زهقنا منكم كلكم بلا استثناء.

عم تضحكوا على مين.

فهرس الأعلام

س

ش

ص

ط

ع

ف

ق

ك

م

ن

هـ

فهرس الأماكن

جسّ نبض
منير شماعة

يتألف هذا الكتاب من قسمين: في القسم الأول (أيام زمان) يتناول المؤلف الدكتور منير شماعه أيام الطفولة والدراسة وممارسة الطب فيسرد طرفاً وقصصاً عاشها ومارسها وشاهدها وكان مسرحها منطقة رأس بيروت وزمانها النصف الثاني من القرن الفائت. أما أبطالها فالراوي وزملاؤه ومرضاه ورواد المطاعم والجارسونية والحلاقون والمعارف والأصدقاء على مدى أكثر من خمسين عاماً.

أما القسم الثاني (تيتي تيتي) فوضع فيه المؤلف آراءه وما خبره في الفكر والسياسة خلال الأحداث اللبنانية تحت موضوعات عديدة منها المواطنة والعروبة والطائفية والدين والمقاومة والإرهاب وسوى ذلك، مشيراً بأسى إلى أن الشعب اللبناني ما زال يعاني المشاكل إياها منذ عشرات السنين.

وفي هذا الكتاب يبرز الراوي البارع الذي يسرد الحكايات بأسلوب بسيط ومعبّر في قسمه الأول كما يبرز المفكّر والمحلل السياسي في قسمه الثاني.